

أعلام العرب

٥٣

زُفَاعُهُ الظُّهُطَاوِي

رائد فكر وامام نهضة

تأليف

الدكتور حسين فوزي النجار

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفيحة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

قديم

من الناس من تمضى به الحياة وانية غير حفية فاذا مضى عرف الناس قدره ولهجوا بذكره ، ومن الناس من يعظم في الحياة جاهه ويشيع ذكره فاذا مضى غفل عنه التاريخ ونسيه الناس ، ومن الناس من يذكر بالفضل وينبه بالمثل الصالح ويؤثر بالحمد وان لم يحظ بجاه الحياة وسلطان الحكم فاذا مضى عرف فضله وخلد ذكره ، وكان رفاعة رافع الطهطاوى من هذا القبيل ، عرفه الناس معلما وكاتبا وشاعرا وناثرا وصحفيا وأديبا ومؤرخا يصول في كل ميدان من ميادين الفكر ، وان لم يعرفوا فيه صاحب جاه أو سلطان ، فعلى كثرة ما تقلب في مناصب الدولة لم يل منصباً فيه جاه أو سلطان ولم يظفر بما ظفر به دونه من ألقاب الجاه والسلطان ، ولم ينل من الألقاب الا لقب البكوية القرين برتبة الأميرالاي الذي ارتقى اليها بحكم تدرجه في وظائف الحكومة .

وحين مضى الطهطاوى بعد حياة غنية خصبة بالفكر والانتاج ، وطالع الناس مظاهر التقدم التي دعا اليها من قبل ، عرفوا ما كان له من فضل بعثها والتنبيه اليها فأقبلوا يستجلون آثاره ويشيدون بذكره . وغدت سيرته خير ملهم للشبيبة في مصر ، بما حوت من آيات الجد والمثابرة والعزم والاصرار ، فقد

بنى الطهطاوى حياته بيديه ، ذهب الى باريس اماما وفقهيا
للأفندية المبعوثين ، فتحول دارسا يتعلم ويبحث ويستجلى
ويتأمل ، وعرف طريقه منذ البداية وحدد أسلوبه وغايته ،
فواءم بين فكره وثقاليد عصره ، ونزعتة الى التجديد وجمود
قومه ، وميله الى الحرية ، واستبداد حكامه ، وشغفه بالديمقراطية
والحكم الدستورى ، والحكم المطلق فى أيامه ، ومضت به
الأيام وهو يعلم ويرشد ويوجه دون أن يثير ضغنا ، أو يحمل
عليه من يخشى مغبة أفكاره ، ودعوته الى التقدم والارتقاء ،
وعاش حياة سهلة رخية الا من كد العمل ومشقة البحث
والتعليم ، وان لم يغد من أصحاب الحكم والجاه والسلطان
فقد ظل بين قومه مرموقا يشهد له الجميع بالفضل والعلم وصال
التاريخ فضله وعلمه .

واذا أردنا نعتا له ، فلن نجد له أصدق مما نعتة به الشيخ
السادات حين قال له فى أحد مجالسه : « اذهب فأنت أبو العزم » .
وكان من عادة الشيخ أن يكنى الناس بما يراه منطبقا عليهم ،
فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا
أبو الخير ، وغير ذلك من الكنى التى تصدق على من يعنيه .

وكان الطهطاوى حقا صاحب عزم وعزيمة ومناط عزمه فى
جده ومثابرته ودأبه ، ولعله فى جده ومثابرته ودأبه أقدر منه
فى شطارته ، فقد ظفر منها فى حياته وبعد مماته بما لم يظفر به
ذكاؤه فى حياته ، فمما يبدو أن الرجل على ما وهب من قدرة
على الدرس ، وذكاء علمي ، كان يعوزه ذكاء من يعاشر السلطان

أو يتصل بالحكم ، وهو ضرب من الذكاء لا يألوه العلماء ، ولعل وقته كان أثمن من أن يضيعه في توطيد أواصر الود مع من بيدهم الأمر ، فقد شغل العلم والدرس كل وقته فلم يكن لديه منه ما يفرغ فيه إلى الناس ، وإن لم يحل بينه وبين ما يقتضيه الواجب من محاملات اجتماعية أو يقعد به عن إعلان ولائه لأصحاب الولاء ، أو لعله كان من الأتفة ما يحول بينه وبين الطلب والرجاء ، فحين بعث به الوالى إلى السودان ، لم يرد أن يتشفع بأحد - على كثرة ما عرف من أصحاب الجاه والنفوذ وعلى شهرته لديهم - فلما فكر في أن يتشفع « بحسن باشا كتحدا مصر » رجاء « نسله - كما يقول - من أحوال تلك الأحوال » نظم قصيدة برسمه ، يقول : انه « لم ييسر ارسالها » ، وإن لم يفصح عن علة ذلك ، وإن كنا نستطيع أن نقول : ان أتفته هي التي حالت بينه وبين ارسالها ، وإن لم تحل بينه وبين نشرها وذكر سببها بعد ذلك ، فلعل الأتفة من الطلب أو خوف الإهمال ، لم تكن أتفة من التوجه لصاحب الجاه والنفوذ .

هذه الأتفة قد يفسرها الناس على أنها قصور في الذكاء بمعنى الشطارة ، وكان الطمطاوى لا ينقصه الذكاء الاجتماعى أو غيره من ضروب الذكاء ، وإن كانت تنقصه الشطارة ، ولعله يستكفها ويجفوها .

وعلى أية حال فقد حمله ذكاؤه وجدده إلى ما يحب ويرضى من الفضل وخلود الأثر ، وقعدت به جفوته للشطارة عن الخطوة

عند أصحاب الجاه والنفوذ وعند السلطان ، وما تغدقه الحظوة على أصحابها من ألقاب الجاه ومناصب النفوذ ، فلم ينل الباشوية ولم يل الوزارة ، ولعله ان حفى بالشطارة والزلفى ما كان ينالهما فقد كانت دماؤه خلوا من الجر كسية والمملوكية . ولكنه مضى فى الخالدين وغفل الزمن عن أصحاب الباشوية والوزارة .

وقد يعنينا من هذا الجانب فى سيرة الطهطاوى ما كان من تأثيره على حياته كإنسان وان كان لا يصور لنا تفرد وخلوده مما يقترن دائما « بالأثر التاريخى » الذى يتركه صاحب السيرة على صفحة الحياة ، ويجذب التاريخ الىه على الدوام . فكلما امتد هذا الأثر التاريخى على صفحة الحياة كلما امتدت سيرة صاحبه على الزمن ، ولا نجد أثرا لإنسان امتد على صفحة الحياة فى مصر الحديثة كما امتد أثر الطهطاوى ، وسيبقى هذا الأثر خالدا ما بقيت نهضة مصر قائمة تفرع وتأخذ سبلها نحو الارتقاء والنهوض والتقدم .

ويتصل هذا الأثر التاريخى — ككل أثر تاريخى للبطل أو العظيم فى التاريخ — بالفكرة التى استقامت عليها حياته ، فكل عمل لا بد وأن تقف وراءه فكرة تحفزه ، وتدفعه للبروز ، وقد تجلت معالم الفكرة فى ذهن الطهطاوى منذ البداية فاتجه كبنى قرابته الى الأزهر ليكون شيخا من شيوخه على يتصدر حلقاته فى يوم من الأيام ويبدو أنه قد أعد نفسه لهذا العمل ، فكان يقيم حلقات للدرس فى المسجد الذى يؤمه بطهطا حين

يؤوب اليها في شهر رمضان حيث تتعطل الدراسة في الأزهر أو خلال عطلة الصيف ، فالفكرة في أن يكون معلما قد نبتت في ذهنه أو أعد نفسه لها منذ البداية كما كان أخواله .

ولكن الفكرة تتطور وتأخذ جذتها لتثمر على يد الشيخ حسن الطويل ، فقد رأى فيه لبنة صالحة لتجديد الدراسات الأزهرية على ما يحب ويهوى لها ، حين وجده يقرض الشعر ويهوى الأدب ويقبل على دراسة التاريخ والجغرافية ، ولا ندري أكان يستقيم على ما يريد العطار لو بقى في الأزهر واتصلت حياته به ؟ فقد انصرف الطهطاوى عن الأزهر الى عمل أكثر ليأمن في الجيش يكفل من حاجات معيشته ما لا يكفله التدريس في الأزهر . وتغيم الفكرة وراء مطالب العيش .

ولكنها تستقيم على هدى وبصيرة عندما تواتيها الفرصة السانحة ، ويجد المعلم ما يستحق أن ينقله الى قومه ، فقبل أن يذهب الى باريس نراه وشيخه الطويل يرغبان في أن يكتب عن سفرته تلك ، عل الناس يرون فيها ما ينفعهم أو يتعلمون منها شيئا .

وتتحول الفكرة الى عمل حين يرى بعد ما بين الحضارة والتقدم في بلده وهذا البلد البعيد ، وحين يدرك علة التأخر في بلده والتقدم في هذا البلد النازح الغريب ، فيهب نفسه لتعليم بلده وترشيده وتجديد وجه الحياة على سطحه ، وتنبعث فيه روح المعلم التي وارتها مطالب الحياة وكفالة العيش . ويعد نفسه لهذا العمل الجليل ، فيقبل على الدرس والتحصيل اقبالا

لا هوادة فيه ، ويجيد الفرنسية كتابة وقراءة دون أن يعنى
بسلامة النطق ، وغدا أمام البعثة أنجب المبعوثين ، فقد عرف أن
قومه فى حاجة الى هذا الجديد الذى يميز الغرب عليهم ، وحتى
يعرفوا هذا الجديد لا بد وأن يترجمه الى لغتهم ، فان الترجمة
هى أولى درجات البعث والاحياء ، قامت عليها النهضة الأوربية ،
وقامت عليها كل نهضة قبلها فقد أقبل العرب فى فجر نهضتهم
على علوم الفرس واليونان والهند يترجمونها الى لغتهم
ويقتبسون من أنظمتها فى ادارة دولتهم .

ويتبنى حركة الترجمة بعد عودته وتصبح مدرسة الألسن
موئل البعث الجديد ، ويتحول أبنائها الى كل جديد من فنون
الغرب وعلومه ينقلونه الى طلاب المدارس والى الناس عامة ،
الا أن المدارس — وقد قامت على النظام الغربى الحديث — هى
التى استوعبت جل جهود المترجمين .

وأصبح الرجل الذى هياً نفسه للترجمة وتقل علوم الغرب
الى لغة قومه معلماً ، يعلم الطلاب فنون الترجمة ويمرّنهم عليها
ويراجع ما يترجمون ، ومرشداً يوجه قومه الى ضروب النهضة
والتقدم ، ورائداً لحركة فكرية تقوم على الاحياء والتجديد ،
فكان هذا الأثر التاريخى الذى خلده وخلد به على ما تجرى
به سيرته فى هذا الكتاب .

دكتور حسين فوزى النجار

المعادي

مقدمة

خبا كل نور ولم تبق غير ذبالة خافتة تنبعث من جنبات الأزهر لا تكاد تضيء أو يمتد بصيصها الى خارج رحباته ، فحين جاء أحمد باشا المعروف بكور وزير — كما يقص الجبرتي عن حوادث عام ١١٦٢ هـ (١٧٤٩ م) — واليا على مصر ، وكان « من أرباب الفضائل وله رغبة في العلوم الرياضية — كما يقول — وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ سالم النفراوي ، والشيخ سليمان المنصوري ، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ، ثم تكلم معهم في الرياضيات فأحجموا وقالوا لانعرف هذه العلوم فتعجب وسكت » . ويمضي الجبرتي فيقول ان الشيخ الشبراوي دخل على الباشا في يوم جمعة يحادثه كعادته . فقال له الباشا : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت في غاية الشوق الى المجيء اليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعدي خير من أن تراء ، فقال له الشيخ هي يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال : وأين هي وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم

علمائها وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند
أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء
من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض
والمواريث كعلم الحساب والغيار ، فقال له : وعلم الوقت كذلك
من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم
بسنن النفل واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير
ذلك ، فقال : نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به
البعض سقط عن الباقيين ، وهذه العلوم تحتاج الى لوازم
وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرفة الطبيعة وحسن
الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل
الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاق مجتمعة من القرى
والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك ، فقال : وأين البعض ، فقال :
موجودون في بيوتهم يسعى اليهم ، ثم أخبره عن الشيخ الوالد
(يقصد أباه الشيخ حسن الجبرتي) وعرفه عنه وأطنب في
ذكره ، فقال ألتس منكم ارساله عندي ، فقال يا مولانا انه
عظيم القدر وليس هو تحت أمرى ، فقال : وكيف الطريق الى
حضوره ؟ قال : تكتبون له ارسالية مع بعض خواصكم فلا
يسعه الامتناع ، ففعل ذلك ، وطلع اليه ولبي دعوته وسر برؤياه
واغتبط به كثيرا وكان يتردد عليه يومين في الجمعة وهما السبت
والأربعاء ، وأدرك منه مأموله ، وواصله بالبر والاكرام الزائد
... الخ » .

ويختم الجبرتي قصته بقوله : « وكان المرحوم » الشيخ

عبد الله الشبراوى « كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له :
سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فانه لولا وجودك كنا
جميعا عنده حمير »^١ .

ولكن لم يكن هناك كثير من أمثال الشيخ حسن الجبرتى ،
وما كانوا حتى ان وجدوا الا الحفقة الأخيرة من الذبالة التى
بقيت تضىء من علوم العرب ، ولم تكن فى ذلك الوقت شيئا
الى جانب ما حقق الغرب من تقدم فى ميدان العلوم .

كانت تلك هى الصفحة الأخيرة من صفحات الحضارة
العربية الباهرة التى أضاءت ظلام العصور الوسطى ، وكانت
صفحة باهتة شوهاء . فقد أخذت غاشية الظلام تضرب أطنابها
على معالم الحضارة فى القاهرة وبغداد ودمشق ، وكانت السيطرة
العثمانية على البلاد العربية قد مضى عليها نيفا وقرنين من
الزمان .

وقد حمل العثمانيون بيارق الاسلام لتخفق فوق تلاع
جديدة لم تخفق عليها من قبل وامتد ملك آل عثمان فطوى
الغرب الى جبال الأطلس وأسوار فينا ، ولو قدر لهم أن
ينسابوا الى أوربا الغربية لكان للاسلام شأن آخر فيها ،
ولكن موجتهم انحسرت عنها لترتد الى الشرق فتطوى دولة
المماليك فى مصر والشام والحجاز وسواحل البحر الأحمر ،
ولكنها وقفت دون فارس التى قاوم الصفويون فيها امتداد

(١) عجائب الآثار : ج ١ ص ١٩٤

الموجة العثمانية فلم تتخط الرافدين ، وأقاموا فيها دولة شيعية لا تدين بالولاء لخليفة سني .

وكان ولاء العثمانيين للإسلام دون حماسهم للأخوة الإسلامية فلم يعدوا يدعون الى عرب الأندلس ، وكانوا قادرين عليها ، بل ان السلطان سليمان القانوني حالف «فرنسوا الأول» ولم يشأ أن يحالف عرب الأندلس في محنتهم ، ولم يلقوا بالا الى مسلمي الشرق الأوسط والأقصى ، وفصموا ما كان بين هؤلاء المسلمين والخلافة العربية من علاقات امتدت على التاريخ ، وكانت روح الفتح مع ما اتسمت به من حماس ديني تغلب فيهم روح الاخاء الاسلامي والوحدة الإسلامية ، فقام حكمهم على القهر والسلطان متسما بالحرص البالغ على مركزية السلطة وسيادة الدولة ، فلم يكن يبقى من الولاية في ولايته ما يسمح له بوضع سياسة للإصلاح خوفا من أن ينقلب على الدولة ويخرج على طاعتها ، مما ضمن سلامتها ولكنه أدى بها الى التأخر وانتشار الجهل والفقر في أرجائها ، انتشارا أخذ يزداد وتزداد معه النفوس والأبدان والعقول ضياعا وتلفا وانحطاطا ، فعمت الخرافة والبدعة وفتكت الأوبئة بالناس وزاد معدل الوفيات بين الأطفال حتى كان تعداد مصر يوم جاءتها الحملة الفرنسية لا يتجاوز ثلاثة ملايين ، وكان حالها من الجهل والتأخر على ما رأينا يوم جاءها أحمد باشا كور وزير واليا في منتصف القرن الثامن عشر .

الا أننا لا نستطيع أن نحمل العثمانيين وحدهم وزر هذا

التأخر ، فقد لعبت فيه عوامل سبقت ضاعف الحكم العثماني من آثارها ، ولم تكن هي الأخرى من صنع المماليك الذين اتهمت اليهم السيادة والملك قبل العثمانيين ، ولا من صنع العناصر التركية الأخرى التي اقتسمت عالم الاسلام في ظل العباسيين ولم يعد للخليفة العباسي معها غير مراسم الولاء وشعائر الولاية دون السلطة والنفوذ ، فقد خدمت كل هذه العناصر عالم الاسلام بقدر ما واجهت من أعباء الحكم وتكاليف السلطان ، ولكن الانحلال والتأخر كانا قد بدأ يبدآن في جسم الدولة قبل ذلك بسنوات ، وجاءت غارات الصليبيين والمغول فأوهنت من عزمها واستنزفت مواردها ، وقضت غارة المغول بالذات على آخر آثار الحضارة العربية الفارسية في بغداد ، فانتقل مركزها الى القاهرة فشهدت على أيام المماليك آخر خفقة من خفقات الذبالة قبل أن تنطفئ على ظلام بهيم .

وقد ورث المماليك عن الأيوبيين دولة مثقلة بالأعباء تعصف بها الأزمات المالية الحادة ، اتجه اليها الصليبيون بثقلهم بعد أن عرفوا أنها ملاذ الاسلام وحماه ، فحملت من ذلك أعظم الجهد أو الجهد كله ، فهي التي تجهش الجيوش وتزودها بآلة الحرب وتمدها بالميرة والنفقة ، وعلى أرضها يعد خير الفرسان وأبرع المقاتلين الذين صمدوا للتتار وأوقعوا بهم الهزيمة أربع مرات متواليات بعد أن طووا أرض الرافدين والهلال الخصيب يريدون وادي النيل ، ودكوا معالم الحضارة العربية في بغداد

ودمشق وحلب ولم يعد غير القاهرة ملاذها الأخير ، وهم الذين قذفوا بآخر فلول الصليبيين الى البحر .

وبالرغم مما عصف من فقر بالبلاد فقد شيدت العمائر وقامت المساجد والبيمارستانات والمنازه تعمر أنحاء القاهرة ، وصنعت الطرف والمنسوجات الثمينة وتقدم فن النقش والزخرفة الاسلامية ، وعاش الممالك حياة مترفة غنية ناعمة ، فان سوء الحالة الاقتصادية كانت تعوضه المكوس الباهظة التى تجبى على تجارة المرور ، فلما انقطع هذا المورد عنهم أخذوا يعرضونه من المصريين مما زاد الحالة الاقتصادية سوءا ، وضاعف من فقر البلاد فضلا عن تواتر عدد من الممالك على حكم البلاد لم تكن لهم مواهب الممالك الأول وقدرتهم ، فتركوا أجنادهم يعيشون فى الأرض فسادا ويوقعون الأذى بالمصريين فلا يقدرّون على ردهم ، وجاء العثمانيون ومصر فضلا عن بلاد الشام فى حال لا يرجى لها صلاح .

ولم يكن العثمانيون خيرا من الممالك ان لم يقلوا عنهم ، فلم تكن لهم قدرة على النهوض والتجديد ، ولم تكن لهم حتى القدرة على التنظيم والتشريع فتركوا كل شىء على حاله وكل ما عناهم هو الابقاء على سيطرة الدولة وسيادتها . فبقى الممالك يحكمون مصر مع الوالى ورجال الحامية العثمانية كما كانوا يحكمونها من قبل ، بل كانت سلطتهم تفوق أحيانا سلطة الوالى ، وبقي الحكم فى الشام للأمراء والشيوخ .

و « لم يزد الحكم العثماني — كما يقول حسين مؤنس في كتابه « الشرق الاسلامي في العصر الحديث » — على أن ضرب نطاقا عسكريا حول البلاد وفرض عليها جبايات منظمة تؤدي كل عام ، وتركها بعد ذلك حرة تصرف أمورها على النحو الذي اعتادت أن تصرفها به قبل الفتح ، ولم تكسب الوحدات الاسلامية شيئا بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذي شملها في السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان ... واستمر الركود بل استحال خمودا ، وزادت الهمم هبوطا والعقول جهلا ، وتضاءلت في نواحي الدولة بوارق النهوض الأدبي أو الفني التي كانت تنبئ بالخير في بعض نواحي مصر والشام ، فسكن كل شيء وركد في ظل هذه الوحدة الظاهرة التي عرفت « بالدولة العثمانية » وانقطعت الصلات التجارية بين الشرق والغرب ، بعد أن كانت قائمة ماضية في سبيل القوة في أواخر أيام المماليك ، فكان انقطاع الصلات هذا أكبر العوامل في تفوق أوربا على العالم الاسلامي اذ أنه وقف في مكانه ومضت أوربا في سبيلها قدما .

عم الفقر والجهل ، وانحطت الصحة العامة ، وعمت البدعة والشعوذة ، وجمد الدين الا من ظواهر الفروض والعبادات التي حرص الناس عليها أشد الحرص ، ومن تعلق بالآباء الاسلامي يشد الناس بعضهم الى بعض ، وتحرص عليه الدولة بعد أن آل أمرها الى الضعف لتبقى على هيبتها وجلالها في النفوس بصفتها دولة الخلافة وحامية الاسلام والمسلمين ، ونم

تكن من قبل حريصة عليها ، وما كانت الخلافة لديها الا شعيرة
من شعائر الدين ، فلم تكن بها الا بعد أن بدت حاجتها اليها
فعدت في يديها وسيلة سياسية لتجميع المسلمين من حولها
ليكونوا وقاءً لها أمام الضغط الأوربي الذي بدأ ينوش
أطرافها ويسطو على حواشيها .

وقد علق الناس فعلا بالخلافة وان ظل التركي في نظرهم
صورة بغیضة للتعالي والاستبداد والتعسف ، الا أنهم لطول
ما بلوا من عسف الحكام واستبدادهم لم يعد يعنيه من أمر
الحكم شيئاً صلح أو فسد الا أن تسير حياتهم وفق نظامها
الرتيب الموروث ، فاقطعت الصلة بين الحاكم والمحكوم ،
وأصبح لكل منهما حياته التي يسلم بها للآخر .

ولكن الممالك وقد أصبحوا بدورهم من رعايا السلطان
— وان بقيت لهم حياتهم وتقاليدهم القديمة وبقي لهم تفوذهم
القديم — قد شعروا باقترابهم من المصريين وباتسائهم الى
الأرض التي شبوا فوقها فنما في قلوبهم حب لمصر بدا أول
الأمر خافتاً ضئيلاً لا يسفر عن ذاته حتى دهم الفرنسيون البلاد
بالغارة ، فبرز كأقوى ما يكون في صمودهم له ، ولعلمهم رأوا
في دفاعهم عن مصر دفاعاً عن كيانهم ووجودهم في بلد ليس لهم
كيان في غيره ، وان بدا على لسان « الألفى » عند وفاته غير
هذا ، اذ يردد في احتضاره تلك العبارة التي يرويها الجبرتي على
لسانه عندما يدون لوفيات سنة ١٢٢١ هـ ، وهي :

« يا مصر ، انظري الى أولادك وهم حولك مشيتين
متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل
الأرتوود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ،
ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ،
ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون
بهجتك ونورك ، ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد
تحرك به خلط دموى وفي الحال تقيأ دما وقال : فض الأمر
وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه وجرى
حكمه على الممالك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد
اليوم » .

وهو ما لا يردده غير واحد من أبناء مصر يرثى لما تردت
فيه بلاده من هوان قبل أن يرثى لما حل بطائفته ، ويخترق حجب
المستقبل في أسى بالغ مما يوشك أن يقع لمصر ويلم ببني جلدته
من الممالك ، فقد انتهت الأمور الى محمد على وأخذ يوطد
سلطانه وتفوذه في خير ايلات الدولة العثمانية ثراء وقوة
واصله .

وقد كشف مجيء الحملة الفرنسية عن عظم الهوة التي
تفصل بين حضارة الغرب الناهضة المتقدمة وحضارة الشرق
الآفلة والتي لم تبق منها غير تلك الذبالة التي تلفظ أنفاسها
في رحبات الأزهر ، ومن تعلق بماض كان آخر ما بقى في نفوس
المصريين يزودهم بالقوة والثقة والاعتزاز بالوطن والدين . كما
كشف عن أصالة الروح المصرية التي صمدت لمقاومة الفرنسيين

يوم زلزل سلطان الممالك وتفرق شملهم وحاقت بهم الهزيمة فولوا فرارا أمام مدافع نابليون ، ويوم وقفوا لنصرة محمد على ضد منافسيه وضد رغبة السلطان ، وان كانوا في صسودهم للفرنسيين يدفعهم الولاء الدينى . وفى انتصارهم لمحمد على يدفعهم احساس بشخصيتهم قبع خامدا فى وجدانهم حتى كشفت عنه أحداث تلك الفترة ، وهو احساس لا يتنافى مع الولاء الدينى الذى يفرض عليهم طاعة الخليفة ، فكان ظهوره بادرة لوعى جديد ، عبر عنه السيد عمر مكرم فى جوابه على مندوب خورشيد باشا الوالى الذى نصبه الخليفة على مصر اذ سأله : — كيف تشورون على من ولاء السلطان عليكم ، وفد قال الله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ورد السيد عمر مكرم :

— ألا فاعلم ان أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل : وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو الا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه ^١ .

(١) زعيم مصر الاول السيد عمر مكرم : ص ١٤٩

وكان هذا حكم الاسلام في صدر الاسلام فلما تحولت الخلافة الى ملك عضود لم يكن هناك من يجرؤ على مجاهرة السلطان بحقوق الرعية ، وغدا رجال الدين ردفا وسندا للسلطان في كل ما يهوى وينشد الا في الخروج على الشريعة ، وعرف السلطان ذلك فأقام نفسه حاميا للشريعة .

ولكن عمر مكرم لا يثور بالسلطان ولا يخرج على الولاء له ، وإنما يجاهد بحق الرعية في اختيار الحاكم الصالح وهو ما أوجبه الاسلام وعرفه المصريون حين كان « شيخ البلد » زعيم المماليك يتوجه الى مقر الوالى بالقلعة فيطوى البساط من تحته ايذانا بعزله ، وما على السلطان الا أن يعين بديله .

لم يكن عزل الوالى أو مخالفة السلطان في أمره شيئا ادئا أو كبيرة من الكبائر ، ولم يأت عمر مكرم في ذلك بجديد حين انحاز الى محمد على وحصل المصريين على اختياره ، ولكن الجديد في الأمر أن المصريين قد قاموا بما كان يقوم به المماليك من عزل الوالى ، ففى وسط تلك النقوضى الضاربة أطنابها والتي تعصف بالمصريين وحدهم دون غيرهم ، كان لا بد لهم من اختيار من يظنونه قادرا على اعادة الأمن والاستقرار للبلاد ، وكان اختيارهم لمحمد على ، اختيارا يقوم على مواجهة الواقع من أمرهم ، فلا أثر فيه لحافز قومى أو وطنى ، وان حمل تلك المبادرة من الوعى الجديد الذى يمكن أن يتطور فيغدو وعيا قوميا ناضجا ، وان لم يتعد حينذاك الاحساس بالذات ، ولم يكن هذا الوعى الجديد أثرا من آثار الموجة الغربية القادمة مع

الفرنسيين ، بقدر ما كان من أثر الأحداث التي ألت بمصر حينذاك ، والتي كشفت عن سلامة الشخصية المصرية التي اعتقد البعض أنها بادرة لوعى قومى وليد ، فلم تكن القومية قد تأكدت صورتها حتى فى أوربا بعد ، وإن أخذت تنمو مع النهضة الى المدى الذى بلغته خلال القرن التاسع عشر ، وإنما كان هذا الوعى الجديد دليلا على يقظة المشاعر الاسلامية عند المصريين ، وانبعثت عاطفة اعتبار الذات عندما قرعتها الأحداث فدفعت بها الى الظهور والحركة . ضد الفرنسيين أولا ، وضد العثمانيين والمماليك يوم ارتحل الفرنسيون عن البلاد .

الا أن حركة المصريين لم تنهض بهم الى المبادرة وامتلاك الزمام فتركوه يفلت منهم الى من أراد الامساك به ، وكانت الظروف مواتية للمغامر الذى يتقدم ويمسك بالأعنة ، وكان هذا المغامر حذرا يرقب الأمور عن كثب ، فلم يلحقه « الكولونيل ويلسون »^١ عندما أبدى دهشته عام ١٨٠٣ من عدم وجود مغامر قوى طموح يقود فرقة من الجند لمقاومة المماليك ، وأعرب أمريكى عاش فى القاهرة عام ١٨٠٤ فى رسالة الى السير « الكسندر بول » قنصل انجلترا فى مالطة عن حالة مصر فقال : « ان مصر من غير رئيس ، ولا بد لها من رئيس جديد ، وستقابل بالترحيب أول متقدم » .

(1) Wilson. Sir Robert T. : History of the British Expédition to Egypt .

وحين تقدم هذا المغامر — وكان حذرا أكثر منه جرئاً ، وماكرا أكثر منه صريحا — رأى بثاقب بصره أن المصريين هم الكفة الراجحة في الميزان ، فعمل على كسب ثقتهم ، ولعله كان يعتقد — وهو ما أثبتته الأيام من ظنه بهم — أنهم لا يتصدرون للحكم ولا يرون في أنفسهم القدرة عليه ، وإن كان من الممكن أن يميلوا بكفة الميزان الى الجانب الذى يرغبونه .

ولم يكن المصريون حقا بطامعين فى الحكم ، وكانوا يرون أنفسهم دونه حتى وإن كانت لهم القدرة عليه ، فلم يكن محمد على أو من سبقه من المماليك الذين حكموا أو الذين طمعوا فى الحكم بعد جلاء الفرنسيين أكثر من زعمائهم قدرة أو أحد ذكاء ، ولكن المصريين كانوا يعتقدون أن حقهم هو دون الولاية وإن عداه الى الاختيار ، واختيارهم للولاية مصريا قد يعد ثورة على نظام الدولة الذى جرت عليه وأخذت به منذ قيامها ، مما يتنافى مع الولاء الذى يكونه لدولة الاسلام وخليفة المسلمين ، فإذا كان لهم أن يختاروا فإن اختيارهم يجب ألا يخرج على نظام الدولة فى اختيارها للولاية ، وقد جرت الدولة على اختيار الولاية من الباشوات الأتراك فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتبعها .

وكان محمد على يعرف ذلك ويدركه تماما ، فعزل على التخلص من الباشوات الأتراك فى مصر واحدا بعد الآخر حتى لم يعد فيها من يصلح للولاية غيره ، فإذا ضمن تأييد المصريين فالولاية من نصيبه ، فقد يجد السلطان فى تأييد المصريين له

وفي استقرار الحال على يديه الخلاص من تلك الفوضى التي
تزعجه فيثبته في الولاية ، ويرضى باختيار المصريين له وهو
ما كان ، إذ وصل فرمان بتثبيت محمد على وأقرار اختيار
المصريين له واليا في الثامن عشر من يولييه سنة ١٨٠٥ ، وكانت
بداية لصفحة جديدة من تاريخ مصر .

لم تكن حملة الفرنسيين على مصر اذن هي التي حركت
المصريين ، ولم تكن الآراء التي جاء بها الفرنسيون هي التي
حسنتهم على التعبير عن ذاتهم ، ولكن طبيعة الحملة وأحداثها
هي التي كشفت لهم عن ذاتهم ودفعتهم الى الحركة ، فقد
ذكرتهم الحملة بغارة الصليبيين على بلاد الاسلام فانبعثت
حميتهم للاسلام ، ورأوا هزيمة المماليك وعجز العثمانيين عن
الدفاع فقاموا بالأمر عنهم اذ لم يعد غيرهم من يقوم به ،
وشهدوا ما تردت فيه البلاد من فوضى بعد رحيل الفرنسيين
فلم يكن أمامهم الا أن يعملوا على رد تلك الفوضى باختيار
من يعتقدون صلاحه ، وكشف كل هذا عن حيوية لم تقض
عليها المحن والرزايا والمظالم التي عصفت بهم ، ولم يذهب بها
ما ناءت به البلاد من سوء وفقر وتأخر .

هذه الحيوية التي لا تفنى ولا ينضب لها معين لدى
المصريين والتي تتوارى حتى تكشف عنها الأحداث هي سر
بقائهم ، وهي التي تبعثهم في يقظة يظنها من يراهم أنهم خلقوا
خلقا جديدا .

وقد كشفت أحداث الحملة الفرنسية وما بعدها عن تلك

الحوية لیتلقفها محمد علی فیتقف دونها ، ویطوعها لخدمة أغراضه ومرامیه ، ولكنها لا تثمر ما كانت تثمره اذا ما انطلقت من عقالها .

فما أن تسلم محمد علی غارب الحكم ودانت له الأمور خاصة من كل رقابة بعد أن أبعد السيد عمر مكرم ونفاه إلى دمیاط ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعا لا رأى لهم فيه ، ویسوقهم سوق الابل الى تحقیق طموحه ، فاتسمت أعماله بالفردية والأثرة ، فكان حاکما مستبدا ، وكان يؤثر الأتراك على المصريين ولا یراهم « یصلحون — كما یقول « دودول »^١ علی لسانه — الا لحمل الأثقال وسوق الحمر» . ولم یحسن الظن بهم فی يوم من الأيام ، وظل یعتمد علی الأتراك والأجانب ، وقد بصره «دروقتی Drovetti» قنصل فرنسا بمزايا المصريين وحسن استعدادهم وذكائهم الفطری ونصحہ بالاستعانة بهم ، ولكنه لم یستعن بهم الا تحت ضغط الحاجة وعلى قدر ما یمکنه الاستغناء عنهم .

وأقام محمد علی دولة حديثة ، ودفع بالجنود المصريين الى الشام والمورة حاملین ألوية النصر والمجد له ، ولكنه فشل — لسوء ما كان یلقاه الجند — فی غرس روح الجندية بین المصريين ، وأقام القناطر والسدود وأصلح نظام الری وكون جهازا اداريا محکما ، ولكنه عجز عن أن یحمل المصريين علی

(1) Dodwell Henry : The Founder of Modern Egypt.
A Study of Mohamed Ali :

الايان بأعماله فشاد فى الهواء وأقام بناءه فى فراغ فلم يلبث أن تحطم بعد وفاته .

ولم يكن للمصريين حظ فى أرباحه ، ولم يحنوا فائدة من مشروعاته ، فقد استصلح مائتى ألف فدان ، وأدخل زراعة القطن وغيره من الزراعات المثمرة ، ولكن الفلاح لم يحن من ورائها شيئا ، وظل الفلاح الأجير الفقير البائس كما كان من قبل ، وأقام المصانع ولكن العامل لم ينل من أجر الا ما دون الكفاف ، وكانت السخرة عبودية ينوء بها المصريون فى القرى والمدن ، ولم يكن لهم الا أن يؤمروا فيطيعوا

وافتح المدارس وأرسل البعوث الى أوربا لتمده بحاجته من الخبراء والفنيين فحسب . فلم يكن تعليم الشعب أو تثقيفه غرضا من أغراضه ، فلما انقضت حاجته منها انتهى أمرها الى الزوال ، ولم تجد ردفا من الشعب يمد فى حياتها أو يطورها بالاصلاح والتجديد ، فقد عجز محمد على عن أن يحمل الرعية على الايمان بأعماله ومشروعاته ، فبقدر ما شاد وأقام من صروح العمران والحضارة المادية ، لم يلق بالا الى بناء الأذهان والعقول أو التريبة الفكرية والاجتماعية التى تدعم بناءه ، وبقي الشعب بمعزل عن تفكيره واتجاهاته فشقى بالحرمان أكثر مما سعد بال عمران .

ولا نغبط الرجل حقه ، فقد أقام بناء دولة حديثة ، وحمل المصريين كرها على القيام بالدور العظيم فى هذا البناء دون أن يعدهم له أو يقوم بأقل جهد فى تقويم روح الشعب لادراك

آماله ومراميه ، وحكم البلاد حكما شرقيا مستبدا بأسلوب
العثماني الماكر الطموح الحاذق في تدبير المؤامرات ، الراغب في
التوسع والسلطان ، فعاش بمعزل عن سواد الناس بعد أن
أبعدهم عن تفكيره ، ولم يسع الى اشراكهم في مسئولية العمل
العظيم الذي يقوم به ، بل لعله كان يراهم دون ذلك ، وما عليهم
إلا أن يمدوه بحاجته من المال والعمال دون أن يكون لهم رأى
فيما يعمل ، وكأن مصر لم تكن غير مزرعة يستثمرها لحسابه
على أحدث الأساليب وليس منها عائد الا له وحده ، وللزراع
الكفاف أو ما يقيم الأود فحسب .

وقد تحمل المصريون في « رفعه وصبا وجهدا بليغا وبذلوا
في سبيله بذلا كريما ، فكانوا حقيقين لديه بالتربية والتعليم ،
وليست هناك أمة تهذبت وارتقت من غير معلم ، وليست هناك
أمة تسمو وتعلو مع انصراف حكامها عنها وتخذييلهم اياها .
لو فعل محمد على ذلك لضمن لاصلاحه قوة وثباتا من روح
الشعب وقوته ، ولوجدت بذوره تربة طيبة تغيب فيها لتنت
نباتا زكيا ، ولكان اصلاحه مس الأساس دون السطوح ، أما
وقد أبعد أهل البلاد فقد جعل عمله سطحيا زائلا يقوم بقيامه
ويموت بموته ، ولو كان المصريون شركاء له في العمل لما انهدم
عمله عن آخره بعد وفاته ^١ .

وكان في مصر على عهده وقبل عهده رجال ممن يمكن أن

(١) الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص : ١٤٥

يشاركوا في الحكم ، ولهم من محبة الشعب ما يسند عمله وجهده ، وجاءت أحداث الحملة الفرنسية فكشفت عن صدقهم وأصالتهم وجدارتهم بالمسئولية ، كما كشفت عن روح الشعب ودفعته الى المبادرة والحركة واليقظة الفكرية ، ولكنه أخمد كل هذا وقضى عليه ، ورد الشعب الى أسوأ مما كان عليه في أيام المماليك ذلة وخضوعا ، فكرهه الناس ووقفوا منه موقف العدو ، ولم تكن طاعتهم له الا استسلاما للسلطان ونزولا على حكم الاستبداد .

وكان من الممكن أن تثمر حيوية الشعب لو وجدت من يدفعها دفعا سليما ، وأن تبدع يقظته الفكرية نهضة ، كانت بوادرها تلوح من قبل لا في مصر وحدها ، بل في كثير من بلاد السلطنة ، وما كانت حركة محمد عبد الوهاب في نجد الا بادرة من تلك البوادر ، والعجيب أن يكون القضاء على حركة ابن عبد الوهاب وحركة المصريين على يد محمد علي ، فترتد البلاد — الى حين — الى نوع من الخمود وان لم يستطع أن يوارى الجمر الذي يتقصد تحت الرماد . فما لبثت أن تلاقى الموجتان الغربية والشرقية بعد سنوات على يقظة وحيوية انبعثتا في فرقة هائلة على يد جمال الدين الأفغانى في مصر وفارس ، ومدحت باشا في تركيا ، والادريسي والسنوسي والشوكانى وأحمد خان في غيرهما من بلاد الاسلام . وأخذت تسفر عن نفسها في شىء من الابهام والتحفظ على يد رفاة

رافع الطهطاوى فى مصر على عهد محمد على حتى أيام اسماعيل ،
وكانت زادا للنهضة الفكرية فى مصر بعد ذلك بسنوات .

أقام محمد على بناء مصر المادى ولكنه قصر فى بنائها الروحى
والاجتماعى فكانت النكسة ، لا فى موقف الدول واجبارها له
على الاستسلام والخضوع ، ولكن فى ردة البلاد الى الحمود
الذى عاتته فى العصر العثمانى . الا أن الموجة الغربية أخذت
تتوالى على مصر ، وكانت بوادر اليقظة قد أخذت تلفح شعوب
الشرق الاسلامى النائمة وكان رفاعة رافع الطهطاوى رائد الفكر
المصرى الحديث سمة على هاتين الظاهرتين : ظاهرة امتداد
الموجة الغربية الى الشرق ، وظاهرة اليقظة الاسلامية الحديثة
فالتقى فى فكره الشرق والغرب على وفاق .

الموجة الغربية

عادت فلول الصليبيين من الشرق بزاد جديد كان غذاء
لنهضة سرعان ما أسفرت عن انطلاقة عقل أخذ يضرب في آفاق
الحياة بسلطان العلم والفكر حتى استوت على درجة من
التقدم غدا الشرق حيالها — بعد أن قعد به الجمود والتخلف —
قزما ضئيلا متهاويا .

وعادوا أيضا وهم يحملون من توقيير المسلمين والحضارة
العربية ما حمل مؤرخا « كهيرنشو » على أن يقول :

« خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم
جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت
أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا (الكفار) الذين
كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية دياتهم ، على حضارة
دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما »^١ .

وبقى هذا التوقيير في نفوس الأوربيين ، وبقيت معه ملاحم
الحروب الصليبية وانتصارات العثمانيين في أوربا تعلو من بأس
العالم الاسلامي ، ثم بدأوا يدركون أن العملاق قد انقلب قزما

(١) المؤلف : التاريخ والسير ص ٣٢ ، وعلم التاريخ ص ٢١ ترجمة العبادي .

مما كانوا يسمعون من أقاصيص الرحالة عن تدهور العالم
الاسلامى وضعف شعوبه فانبعث فيهم الطمع القديم فى امتلاكه
والقضاء عليه .

وكانت العزلة قد ضربت نطاقها حول الدولة العثمانية بعد
أن انصرف الأوربيون عن البحر المتوسط الى البحار الجنوبية
واقطعت التجارة التى تغدق على أهله وعلى حكامه الربح
الوفير ، فعم الفقر وفى أذياله استشرى الجهل فجمدت العقول
حتى ذكر القنصل الروسى « دوها ميل » أن مصر حين ولينا
محمد على لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة
باستثناء الكتبة من القبط ، ولم يكن فى دمشق أو حلب بائع
واحد للمكتب — كما يقول « بورنج » فى تقريره عن التجارة فى
الشام — مما يدل على انعدام التعليم بصورة عامة انعداماً قل
معه الاقبال على طلب الكتب .

فلما جاء الفرنسيون الى مصر ، أيقظوا فى المصريين ذكريات
قديمة لغارة المسيحيين على العالم الاسلامى ، واعتقدوا أنها
غارة جديدة لا تلبث أن تتحطم أمام صدمات الممالك القوية
كما تحطمت غاراتهم من قبل أمام قطز وبيبرس وقلاوون ،
وما لبثوا أن أدركوا أن عهد الممالك العظام قد مضى ، وأن
الممالك الذين يحكمونهم ليسوا الا ظلالة زائفة لبطولة أفلت
واقضى عهدا ، وأدركوا أيضا أن شيئاً جديداً قد حدث
لا عهد لهم به ، قد أيقظتهم عليه مدافع بونابرت التى قصفت

فرسان الممالك وكأنها كانت تقصف في الوقت نفسه عقولهم وقلوبهم .

رأى المصريون لونا جديدا من الحياة أنكروه أشد الانكار ، واستمعوا الى أفكار بهمت في عقولهم وظلوا منها في حيرة ، ثم أنكروها هي الأخرى لأنها من بدع الأفرنج ، ولكنهم أيقنوا أخيرا أن تحولا خطيرا قد طرأ على هذا العالم .

ولعلمهم قرأوا منشور بونا برت فكذبوا ما ادعاه من « أن الفرنسيون هم أيضا مسلمون مخلصون » ولكنهم دون شك قد وقفوا عند كلماته متأملين وهو يخاطبهم :

« وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين الممالك والعقل والفضل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شيء حسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة » .

« فاذا كانت الأرض التزاما للمالك ، فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ! ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .
« ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

فلم يكن في تفكيرهم وعقيدتهم ما يمنع المساواة بين الناس ،

ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ارتقاء المناصب العالية ، مما يشير اليه الجبرتي كما يشير الى ضيق المصريين بالممالك واحتقارهم للأتراك بعد أن عجزوا عن حماية بلادهم ، واعجابهم بما بدا من امتياز الفرنسيين وتفوقهم في النظام والادارة والحرب .

ولا ريب أنهم قد سمعوا أيضا أن الفرنسيين قد افتتحوا معهدا بالقاهرة ، ورأوا رجالا منهم لا شأن لهم بالسياسة والحرب يجوبون الديار بحثا وتنقيا في آثارهم ، وإن لم يعرفوا — كما نعتقد — أن ضابطا فرنسيا قد عثر على حجر سيكون له أبعد الأثر في الكشف عن تاريخ مصر القديم ، ولكنهم عرفوا أن « كوتيه » أحد علمائهم قد بدأ ينشئ المصانع ويعنى بالزراعة والمحاصيل حتى يعود الى البلاد رخواؤها القديم .

الا أنهم ظلوا ينظرون الى الفرنسيين نظرتهم الى المغير الغريب ، فلم تمس تلك الأفكار الجديدة قلوبهم بقدر ما مست عقولهم ، وغلبت العادة والعاطفة حكم العقل الباهت فبقى تفكيرهم بنجوة منها ، ولم يصح فيهم غير اعتبارهم لذاتهم في خضم الصراع القائم حول مصر داخل البلاد وخارجها في الآستانة ولندن وباريس .

ثم جاء محمد علي فأخذ ينظم المزرعة التي اغتصبها بالمر والخدمة على نمط جديد يدر عليه أعظم ما ينشده من ربح ، وبدأ يستهدى النظم الأوربية ادارته وتشريعاته ، وكان في

حاجة الى الرجال الذين يقومون بالعمل معه ولحسابه ، فقد أصبحت مصر حكرا كبيرا له ولأسرته ، فلم يغب عن باله أبدا مستقبل أسرته في هذه الضيقة الجديدة ، فأنشأ المدارس التي تمده بحاجته من الفنيين والاداريين ، وأرسل البعث الى أوروبا لتكون ادارته على أحسن نمط من الاستثمار المنشود . وكان الرجل قادرا حقا في هذا المضمار ، بل كان منشئا واداريا تجذت عبقريته في كل ما امتدت اليه يده من عمل ، فقد أنشأ المصانع وبنى السدود والقناطر وحفر الترع وافتتح المدارس ، وأنزل الى البحر أسطولين من المواخر على اختلافها في كل منهما عشر بوارج كبيرة ، واستطاع أن يمد جيشا قوامه مائة ألف جندي بالعتاد والكسب والمرتبات . وخاض حروبا عديدة في الجزيرة العربية والسودان والشام والمورة مما يقتضى كثيرا من النفقة ، وابتاع ضمائر الحكام في الآستانة وقناصل الدول بالرشا والهدايا ، مما يثقل ميزانيته بأبهظ الأعباء ، ولكنه ظل طوال حياته بمنأى من الديون ولم يلجأ الى الاقتراض ، وأحكم دخله ومنصرفه فلم تشك ميزانيته نوعا من الخلل ، وكان لديه على الدوام مبلغ متوفر في احتياطي الميزانية .

ولم تكن الخبرة الأوربية هي التي أمدته بملك القدرة ، فقد ظل الرجل شرقيا في طابعه وفي تفكيره ، بل أن نظم الحياة لم تتغير في عهده عما قبلها ، وكل ما عمله أنه استعان بالأساليب الأوربية لتهديبها واصلاحها ، أو لأحكام ادارتها حتى تفيء عليه أعظم الربح ، فنظامه الاحتكاري لم يكن نظاما أوربيا بل

كان نظاما شرقيا في صميمه ، ولكنه عرف كيف يحول هذا النظام الى عمل استثمارى ضخم أداره وفقا لأساليب الادارة الأوروبية ، ولم يضع لآيراداته وماليته — لعهد طويل — ميزانية منفصلة ، بل كان كل المال يرد اليه وينفق منه دون تبنيذ أو قيود حسابية على غرار ما كان يجرى فى الشرق ، ولكنه كان حريصا على أن تكون نفقاته أقل من إيراداته ، كما ظل على طابع الحكام الأتراك من المكر والخديعة اللذين كثيرا ما أعاناه على تحقيق مآربه .

وكانت فكرته عن التعليم شرقية لا غربية ^١ ، فلم يعن بالفكر والثقافة ، ولم يقصد من ورائه غير اعداد نفر من القادرين على خدمته وخدمة الدولة التى يملكها ملكية تامة ، فافتتح المدارس وأرسل البعثوث الى أوروبا لهذا الغرض فحسب ، فبقيت الموجة الغربية تنحصر عند شواطئه ولا تمتد الى أفكار المصريين وقلوبهم .

ثم كان هذا الصراع الدولى الجديد حول تحديد مستقبل مصر ومركز عاقلها القوى بداية ما عرف بالمسألة المصرية التى كتبت الحملة الفرنسية أولى صفحاتها ، وأيقظت دول الغرب الاستعمارية على أهمية مصر وموقعها الفريد فى قلب العالم القديم ، كما كان بداية لموجة من المد الغربى فى صورة جديدة : صورة أرجال من الأجانب الوافدين تبحث عن فرص جديدة

(١) الشرق الاسلامى ص ١٦٢ ، ١٦٣

للعمل والثناء ، وأموال أخذت تتدفق على البلاد في شكل قروض واستثمارات تجارية ما لبثت بعد زمن أن سيطرت على اقتصاديات البلاد ومراققتها العامة .

ولم يعن المصريون كثيرا بهذا الصراع الدائر حولهم ، فما كان لهم منذ عهد بعيد ككل شعوب الشرق شأن بالسياسة ، وكل ما عناهم هو الخوف من الغارة الأوربية التي ترتبط دائما في أذهانهم بذكريات الحروب الصليبية والعدوان على بلاد الاسلام والمسلمين ، فما كانت أوروبا تطالعهم دائما الا بالجيوش والسلاح ، وها هي تنقض عليهم مرة أخرى ، بل ان المغيرين هم أنفسهم من الفرنسيين الذين ذاقوا الهزيمة على يد قطز وبيرس من قبل ، حتى الانجليز هم الآخرون قد أغاروا على البلاد بعد الفرنسيين ولما تنقض بضع سنوات ، فيثورون على الفرنسيين ويهبون لمقاتلة الانجليز في رشيد ويقضون عليهم قبل أن تسعفهم جيوش محمد علي ، وفي الحالين لا يدفعهم الولاء للدولة قدر ما يدفعهم الولاء للاسلام ، فما كانت الدولة تعنيهم هم وغيرهم من أمم الشرق التي عانت من عبث الحكام واستبدادهم ما يفوق استبداد المغير ، ولقد رأوا أن حكم الفرنسيين كان أرفق بهم من حكم المماليك ، ولكن الدين هو الذي يقربهم من المماليك ويبعدهم عن الفرنسيين .

لم يكن اللقاء بين الغرب والشرق اذن لقاء حميدا ، فتوجس المصريون من كل ما يجيء به سرا ، وأصبح الشرق كله -

كلما زاد الاحتكاك بينه وبين الغرب — في وجل من الخطر الذي يكمن في مجيئه .

وذهبت الموجة الأولى التي جاءت بقدم الفرنسيين وقد أيقظت المصريين على عالم جديد أشد صخباً وحيوية مما ألفت حياتهم في ظل العثمانيين والمماليك ، ولكنها لم تترك في نفوسهم أثراً كبيراً لكثرة ما ناشتهم الأحداث بعد ذلك ، فلم يكن لديهم الوقت أو الهدوء للتأمل والاستيعاب . وجاء محمد علي فسد ذراعيه الى أوروبا دون أن يسمح للمثل الأوربية بالاقتراب من حياة المصريين ، وإن لم يحمل توقيراً كبيراً لما درج عليه المصريون من عادات وتقاليد ، ولكنه لم يصطدم بهذا الجانب من حياتهم كما اصطدم به الفرنسيون ، فكثيراً ما خرج عليه ما دام فيه . نفع له ، فشارك في تجارة الخمر ، واحتكر صناعة العرقى وسمح بتشريح الأجساد ، واحتكم الى العرف فيما يتصل بالمعاملات التجارية دون أن يتقيد بأحكام الشرع التي كان المسلمون يتقاضون في حدودها .

واقضى عصر محمد علي دون أن يترك الاحتكاك بينه وبين أوروبا أثراً في حياة المصريين العقلية والاجتماعية ، وظل محمد علي حتى في بلاطه شرقياً تركيا لا تختلف حياته كثيراً عما كانت عليه حياة سيده الشرعى فى الآستانة ، وبقيت حياة الموسرين — وكانوا من الطبقة التركية الحاكمة — تجرى على سنن الحياة العثمانية وتقاليدها ، أما السواد الأعظم من الناس

فلم يكن ثمة تغيير كبير في حياتهم الا أن ازدادوا فقرا على فقر ، وعصرهم الاملاق حتى أجذبت معه عقولهم وقلوبهم ، ولاذوا بالصمت يجترون آلامهم في سكون .

ولكن الموجة الغريبة ظلت تتوش البلاد بالعدوان ، وتشير مكامن الخذر من غارة أوربية ، وبدأت فرنسا للجولة بالعدوان على الجزائر عام ١٨٣٠ وكانت بريطانيا قد أخذت تفرض ارادتها على بعض امارات الخليج والجنوب العربى واحتلت عدن عام ١٨٣٩ ولم يشعر عرب المشرق بالضغط الأوربى الذى يقع على الدولة العثمانية قدر ما شعروا بوقر الاستبداد العثمانى ومظالمه .

وهكذا بدأت الموجة الغريبة امتدادها بالعدوان قبل أن تطالع البلاد بحضارتها وتقدمها ، بل حالت بينها وبين التقدم ، وعملت على أن تظل في خمودها حتى يتسنى لها اقتطافها عندما تنضج الثمرة ويحين وقت القطف .

وكان هذا اللقاء العدائى بين الغرب والشرق هو الذى حفز أمم الشرق على استجلاء واقعها وتبصر حالها واكتناه علتها ، وخرجت من مرحلة التأمل وقد عرفت داءها واستبانت دواءها ، وأدركت أن قوة الغرب في تقدمه وتفوقه الحضارى فكيف السبيل الى التقدم ؟ وما هو الطريق لبلوغ ما بلغه الغرب من حضارة ؟

هنا بدأت الموجة الغريبة تلطم عقول الناس وقلوبهم وتنفذ

اليها ، وهنا كانت دعوة الاصلاح ثمرة الاحساس بالتخلف
والجمود ، وهنا كان رفاعة رافع الطهطاوى رائد حركة لم تشر
على يديه وان شهد تبشيرها في آخريات أيامه عندما تهيأت
العقول لتقبل حركة الاصلاح ، وأخذت البلاد تسلك مسيرتها
الى الثورة السياسية والفكرية والاجتماعية .

شرق وغرب

كان قمينا باصلاحات محمد على أن تكون أساسا لنهضة تستمر وتثمر في حياة البلاد ، وكان قمينا بالبعوث التي أوفدها الى أوروبا أن تكون نواة تقدم يشمل كل نواحي الحياة في مصر لولا أن محمد على لم يدع للشعب نصيبا في مشروعاته ، فلم يكن يؤمن بقدرة هذا الشعب على تحمل المسئولية أو المشاركة فيها ، ولعله كان يحذر هذا الشعب ويخشاه ولا يثق به كما صرح بذلك مرة للقنصل الروسي في مصر^١ وبقي هذا الحذر من المصريين كامنا في أبناء أسرته من بعده ، فالأمير عمر طوسون — ويعد من أصلح رجال هذه الأسرة — يحدد لمحمد على أنه أقصى المصريين عن الارتقاء « الى مراتب القيادة » في الجيش فيقول عنهم انهم « عندما يرتقون الى مراتب القيادة لا يحسنون القيام بواجبهم ولا يعتزون بكرامة مراكزهم » ثم يقول : « وربما كان هذا من حظ محمد على وعين طالعه ، لأن المصريين شعب سريع القلب ، وهو من هذه الوجهة لا يؤمن

(1) René Cattaoui : Le règne de Mohamed Ali d'après
Les archives Russes en Egypte.
Le Caire, 1931. I, pp. 425—426.

جانبه فلو سلمت قيادة الجيش الى ضباط من جنسه لحيف أن
ينزعوا يوما الى الفتنة والتمرد»^١.

وأورثه هذا الحذر فشل مشروعاته في النهاية ، فلم تغرب
حياته حتى رأى البذرة التي أنبتها قد ذوت وذبلت ، وكان هو
نفسه قد يئس منها وأهملها بعد أن رأى أنها لم تعد ذات نفع
له ، اذ ختم فرمان ٢٢ مايو ١٨٤١ آماله وطموحه ، وعرف أن
كل ما ناله على طول الجهد والعناء ولاية مصر وراثية في أكبر
أبنائه . فأقفلت المدارس وأهملت المصانع وكأنها لم تقم إلا
لخدمة طموحه ، فلما انقضت الحاجة منها ، انتهت الحاجة إليها .

وارتدت البلاد بعده الى نوع من الخمود لم يحسه
الشعب ، فقد فرض عليه النشاط كما فرض عليه الخمود ، وهو
في الحالين لا يد له في النشاط أو في الخمود ، فأقفل عباس
المدارس ولم يبق منها غير القليل ، ، وتوقفت المصانع وفصم
ما بينه وبين أوروبا ، فاستغنى عن الموظفين الفرنسيين وكانت
منهم كثرة الأجانب الذين يعملون في الحكومة ، كما استغنى
عن جهود العلماء من مصريين وأجانب ، وأهمل العلم اهمالا
أقفرته معه حركة التأليف والترجمة ولم تكن قد استوت بعد
على أساس صحيح .

وعاقت الردة ما كان يمكن أن تثمره جهود المبعوثين بعد
عودتهم وبعد أن ترمسوا بما لحقوا من أعمال أيه قبل أن يدركها

(١) المؤلف : أحمد لطفى السيد ص ١٤ اعلام العرب عدد ٢٩

البوار ، فقد ارتبط جهد هؤلاء المبعوثين بنشاط الدولة وما كان يمكن أن تثمر أعمالهم بعيداً عنها ، فلاذوا بوظائفهم وجمدت جهودهم عندما جمد نشاط الدولة . ولم يبرز من بينهم الا من امتد نشاطه بعيداً عن قيود الوظيفة ، وكان رفاعة رافع الطهطاوى أبرز أقرانه فى هذا فخلد أثره كما خلد أثر من امتد بجهد مناهم الى أبعد من قيود الوظيفة ، وغدا رفاعة فى جيله رائد فكر وامام نهضة لم تثمر فى عصره وان وضعت البذرة التى نبتت وأثمرت على يد من جاءوا بعده .

والتقى الشرق والغرب فى عقله وقلبه على وفاق ، فلم يكن هذا الفتى الذى أوفى على الغاية من تعليمه فى الأزهر واشتغل بتدريس علوم الدين واللغة فيه وفى غيره من المساجد فى طهطا وملوى^١ ، ونظم الشعر وعمل واعظاً واماماً فى جيش محمد على ، متعصباً أو منطوياً على ذاته ، بل كان الى جانب تدينه مستوى النفس ، رحب الأفق ، يحكم العقل قبل أن تتحكم فيه العاطفة ، ميالاً الى التجديد أكثر منه الى المحافظة ، قوى الملاحظة يدون ما يراه بصدق ، يقرأ ويستوعب ما يقرأ ويتمثله ، يسوق الراى فيما يدون عما يشاهد ، ويأتى بالمثل المنشود فيما يكتب أو يؤلف فى لين وهوادة تدفع القارئ الى دونه أن تشبه أو تصدم تفكيره ، فاذا بالفكرة المبهمه مسوية ، وإذا بالرأى الذى يمضه مألوفاً لا يرى فيه عوجاً أو فكراً .

(١) حلية الزمن ص ٢٢

وصدق المستشرق الفرنسي « سلفستر دى ساسى » حين وصفه بأنه « جيد النقد سليم الفهم » فقد كان الطمطاوى قادراً على استجلاء ما يرى وتمثل ما يقرأ ، وما كان يضيه أن يفون الرأى فيرجع عنه لأنه جاوز فهمه ، أو رأى فيه خطأ لم يتنبه من قبل . أو أمراً قد يؤوده ذكره ، ففى « تخلص الابرز » يحذف من مخطوطة الكتاب عند الطبع قصة ساذجة له مع « حسن افندى الاسكندرانى »^١ وكان أحد المشرفين على تلك البعثة فى باريس ، وقد جاء ذكرها فى الباب الرابع من مقدمة المخطوطة ونصها بعد تسمية الاسكندرانى والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم لا تخلو من رجل صالح ، ولعل صالح أربعيننا هو الحاج حسن افندى الاسكندرانى . فانه بهذه السفرة تمسك على الدين ما أمكن ، وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظن بنصرة الاسلام على الموسقوية بأفماس سلطان الاسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الامام الأعظم السلطان محمود ، ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الاسلام ، فلا يشك هذا الأفندى فى نصرة الاسلام ، فسأله عن ذلك ، فكان يقول ان الاسلام مبشر بالنصرة ، وان الله تعالى لا يخذل أحبابه وينصر أعداءه ،

(١) أمير البحار حسن باشا الاسكندرانى فيما بعد ، أوفد فى البعثة الاولى لدراسة علوم البحر وارتقى فى سلك البحرية فعقد له لواء القيادة على الاسطول المصرى فى حرب القرم (١٨٥٢) وفرق مع سفينته (مفتاح جهاد) سنة ١٨٥٥ فى تلك الحرب .

وانه رأى جملة منامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق ، وأعطاني فائدة لأستعملها وأقول ما يظهر لى ، وصورة هذه الفائدة أن يقرأ الانسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلاً للقبلة ثم ينظر الى السماء ، ويقول اللهم اكشف لى عما يقع فى كذا وكذا ، ثم ينام على الجانب الأيمن ، ففعلت ذلك ، ودعوت الله قائلاً اللهم أرنى ما يقع للسلطان فى هذه الحراية ، ففعلت ، فرأيت خادماً فى المنام يقول ما معناه : محمود افندى والى القصير سابقا الذى نزل عن مرتبة أميرالاي قد رجع فى منصبه وأنا ذاهب لأبشره بذلك . اهـ » .

« ففعلت ليلاً وكتبت ذلك لثلاث أنساء ، وقصصته صباحاً على حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة . فتواردت بعد ذلك الأنباء السارة ، وتفسير المنام سهل » . ويرى كتاب مقدمة الطبعة التى أصدرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومى ^١ « أن رفاعة وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هـ هذا الكلام الذى كتبه قبل انقضاء ست سنين أو سبع لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ورفض أن ينشره » ..

ونرى بدورنا أن الحذف لم يكن مصدره السذاجة ، فهناك فى يومنا هذا من المثقفين وأصحاب الفكر من لا ينكر أمثال تلك الرؤى والكرامات ، بل إن العلم لا ينكره ، فمن

(١) الدكتور مهدى علام . والدكتور أحمد أحمد بدوى والدكتور أنور لوقا ، وقدموا كتاباً مقدمة الطبعة التى أصدرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومى بالاقليم المصرى لكتاب « تخلص الابريز » لمناسبة الاحتفال بذكرى صاحب الترجمة عام ١٩٥٨

يركز تفكيره في أمر قبل نومه تراوده أحلامه عنه بما يغلب على عقله الباطن عند نومه .

ولم يرد الطهطاوى في هذا الكلام وهما أو يروى خبراً لتأكيد وهم أو خرافة ، وإنما يقص ما جرى على علاقته دون تعليق ، وخبر رؤياه صادق ، فهو صاحبها وهو راويه ، ولا ينكر الانسان ما يرى الا أن يبدى عجبه منه ان كان فيه عجب ، ونعتقد أن ما حمل الطهطاوى على حذف هذا النص ما جاء فيه من دعاء لسلطان الاسلام ونصر الله له في وقت يشتبك فيه ولى نعمته في حرب مع السلطان . مما يؤوده ذكره .

كما يرون أنه قد أسقط عند الطبع في حديث رحلته من القاهرة الى الاسكندرية عبارة « غير أنه حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى ابراهيم الدسوقي فى القرب من دسوق » لأنه « الآن قد يرى فى التبرك بالأضرحة افراطاً فى السذاجة » ، ولا نعتقد أن الرجل قد فكر فى هذا ، ولكنه — وكان مما لمسناه فى كتاباته لا يعرض لمشاعره وعواطفه الذاتية — قد رأى فيها اقحاماً لمشاعره على القارىء .

وكان قد ضرب فى الفصل الثالث عشر مثلاً لما لأهل باريس من حشوات ضلالية فى العلوم الحكيمية « كالقول بدوران الأرض ونحوه » فلما أدرك خطأ مثله حذفه عند الطبع ، فقد بدا دوران الأرض أمراً عجيباً للفتى الأزهرى فى أول رحيله الى باريس ، ولعله رأى فى القول به ما يصدم مشاعره الدينية ، فلم تكن الفكرة قد استقامت فى عقله على يقين ثابت يوفق فيه

بين المدرك والمحسوس ، وانه ليرى أنهم « يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها » ولكنه رغم ذلك بقى في حيرة منها فلا يشير اليها بالنفى أو الاثبات ، ويكتفى بحذف ما كتبه مشككا فيها ، ولكنه يبقى ما ذكره عن أحد علماء المغرب وهو « الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » وقوله بدوران الأرض وأنها كرة « ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها »^١ .

ولا ندرى علة حذر الطهطاوى من مناقشة هذا الرأى ، وقد أنكره في البداية كما جاء في مخطوطة « تخليص الابريز » ، واكتفى بحذف ما يشير الى انكاره عند طبع الكتاب ، واكتفى بإثبات رأى الشيخ الكنتاوى عن كروية الأرض دون انكار أو تأييد ، ولا نعتقد أنه ظل في شك من هذا الأمر والا لأبقى على رأيه الذى أورده في المخطوطة ، أو « أنه وزن الأمور بعد أوبته الى مصر بميزان معاصريه ، فتحاشى ما يعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف « جاليليو » وأن يعيد مأساته » . فما كان الأمر يصل به في مصر الى ما وصل اليه مع جاليليو في ايطاليا ، فسلطة العلماء في مصر لم تكن كسلطة الكنيسة في ايطاليا ، ولم يكن مما يعنى ولى النعم أو يهمة أن تدور الأرض أو لا تدور ، أو أنها كروية أو مسطحة ، وما من شك أنه سمع ذلك ممن اتصل بهم من الأجانب ، ولا يضيره أن يسمعه من الطهطاوى ،

(١) تخليص الابريز : المقالة الثانية ، الفصل الاول .

ولم يكن الزأى العلم فى مصر من القوة ما يجعل له وزناً فى قبل ذلك أو رفضه . وكان من يقرأون من أصحابه على علم بهذا الأمر ، ولكنه كان يتنكب ما يقحه فى جدل مع غير وان كان بوسعه أن يشير الى البراهين التى يستند اليها علماء الغرب فى اثبات كروية الأرض ودورانها دون تفى أو تأييد ، والناس أحرار فى قبله أو رفضه ولا تثريب عليه ، ولكن الرجل كان دائماً على حذر من أن يقحم رأيه على آراء الآخرين ، وظل على الدوام ناقلًا لما يسمع أو يرى دون أن يبدى فيه رأياً الا ما رآه مخالفاً للشرعة ، وكل ما كان ينبغي هو تعليم الناس وتعريفهم بأسباب الحضارة الغربية وتقدم الغرب ، فاذا تعلم الناس فانهم مدركون غدا ما يعسر عليهم ادراكه اليوم . فلم يتخرج مثلاً أن يحدد موقع الاسكندرية بالنسبة لخطوط الطول والعرض فيقول انها « موضوعة فى احدى وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء »^١ . ولم يتخرج أيضاً فيما استطرد اليه من تحديد موقع باريس الى الكلام عن خطوط الطول والعرض من أن يقول : « اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وانها غير صادقة التكوين ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها صورة الأرض .

« ولا مكان تقسيم الأرض وتسهيل معرفتها ، توهموا فيها دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ومحورا وقطبين ورسموها

(١) المصدر السابق : المقالة الاولى ، الفصل الثانى .

على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك ، وطرفاه القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالى والآخر القطب الجنوبى ، ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين الى الآخر ، وعلة تسميتها بذلك أنه اذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بذلك المحل ، ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض .

« وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصاف النهار ، وهى التى بينها وبين مركزها تواز على محور الأرض وأعظمها دائرة خط الاستواء ، وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين ، وهى تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمالى ، والآخر النصف الجنوبى ، ثم أن دوائر أنصاف النهار ، والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم الى ثلثمائة وستين ودرجة وكل درجة تتجزأ الى ستين دقيقة ، وكل دقيقة الى ستين ثانية ، وكل ثانية الى ستين ثالثة ، وهكذا »^١

فلم يحجم الطهطاوى اذن عن ابداء رأى فى كروية الأرض ودورانها فى صدد الحديث عن خطوط الطول والعرض ، ولم يكن ما حذفه عند الطبع من بعض فقرات المخطوطة عن خوف من أن يكون مصيره مصير جاليليو أو من التعرض لسخط الرأى العام ، وإنما على طريقته نراه يكتفى بذكر ما رآه « علماء

(١) المصدر السابق : المقالة الثالثة ، الفصل الاول .

الهيئة « كما اكتفى بذكر رأى الشيخ الكنتاوى دون تفى أو تأييد . وان اقترح فى هذا الصدد توحيد خط الطول الأساسى أو خط الصفر بالنسبة لما رأى من اختلافه عند الأمم فقد « اختار الأفرنج أن يجعل أصل كل قطر من الأقطار خط نصف نهارهم الأولى ببلادهم ، لينسبوا اليها ما عداها ، كما صنع الفرنساوية ، فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس ، وبقيت أمم منهم كالفلنك على أخذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات » .

« وفى الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ينسب اليه ما عداه ويكون فى قطر لا عمار بعده معلوم ، أو ممتاز بجزية كمكة المشرفة »^١ .

وقد تم هذا التوحيد عندما أصبح خط « جرينتش » هو خط الطول الأساسى أو خط الصفر .

ويدل هذا على ما كان يتمتع به الرجل من « سلامة الفهم » كما قال عنه « البارون دى ساسى » .

ورأى رفاعة من حضارة الغرب ما ارتفع به الغرب على سائر الأمصار فأخذ يحث « ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع . والحق أحق أن يتبع ، ولعمرك الله أننى مدة اقامتى

(١) المصدر السابق : المقالة الثالثة ، الفصل الاول .

بهذه البلاد في حيرة على تمتعها بذلك وخلق ممالك الاسلام
منه .

« وقد قوت شوكة الافرنج ببراعتهم ، وتديرهم بل
وعدلهم ومعرفتهم في الحروب ، وتنوعهم واختراعاتهم فيها ،
ولولا أن الاسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان
كلاشيء ، بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم »^١ .
فالرجل يؤمن بتفوق الغرب ، ويدرك أسباب تفوقه ، ويحث
بني وطنه على تلمسه والسعى اليه ، وعلى أهل العلم « حث
جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة » .
فأخذ يعلم ويبشر بالعلم ويدعو اليه ، بعد أن أدرك أن تفوق
الغرب على الشرق هو في تقدمه وتفوقه في مضمار العلوم
والفنون والصنائع أو ما أسماها « العلوم الحكيمة » .

ولم يفقد في إيمانه بالغرب إيمانه بالشرق ، فلم يرث من
الغرب شعورا بالنقص يحصله على التنكر لمثله وتقاليد وأهله ،
ولا شعورا بالاستعلاء يدفعه الى العزلة والانطواء والاقتصار
عن المجتمع الذي نشأ فيه . فاذا كانت « البلاد الأفرنجية قد
بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما
وراء الطبيعة أصولها وفروعها » وإذا كانت « البلاد الاسلامية
قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها ، وفي العلوم العقلية ،
وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها » فانها في حاجة الى « كسب
ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه » ويعترف الفرنج لنا « بأننا

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

كنا أساتذتهم في سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم والفضل للمتقدم^١ .

فشعور رفاعة بسبق أمته وبلاده في مضمار الحضارة وانه ينتسب الى بلاد كانت « أكمل سائر البلاد تمدنا ورفاهية وتربية زاهرة زاهية » وانه من مصر « التى هى أعظم البلاد وأعمرها » وانها لو « توفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لسان الناس من قوامهم مصر أم الدنيا » ، شعوره بكل هذا قد حماه ولا شك من مركب النقص أو مركب الاستعلاء ، فاستوى الشرق والغرب في قلبه وعقله على وفاق هداه الى الطريق القويم لتلمس أسباب التقدم والعمران لبلاده . وهى الأخذ بعلوم الغرب وفنونه وصنائعه ، ولا سبيل الى ذلك الا بالعلم والتعليم ، وخلق جيل متنور يقود البلاد الى التقدم والارتقاء . فكان طوال حياته معلما يؤلف ويترجم ويشغل بالتدريس . وما كان في قدرته أن يكون أكثر من هذا ، فعرف الناس بالحضارة الأوروبية وكان رائدا من رواد التمدن الأوروبى دون أن يرتدى مسوح الدعاة والمصلحين ، واتسم عمله بالتجديد والاصلاح ولكنه لم يتعد نطاق العمل الذى يتولاه ، وغدا البشير بحركة الاستنارة وظئر النهضة المصرية الحديثة دون أن يجابه الحاكم أو يتحدى رأى العام أو يسفر عن رأى يصدم مشاعر الجاهير أو يثير الناس عليه ،

(١) المصدر السابق : نفس الباب .

فقد كان يعرف أن مرد الأمور الى الحاكم ، وانه قادر على أن يحول بينه وبين ما يريد ، فلا يتوانى عن إثارة همته بتملق عمله وإلاشادة بفضلله ، فالاسكندرية التى شبهها بمرسيليا وقال عنها عند مروره بها فى سفره الى باريس انها « عينة مرسيليا وأنموذجها » يقول عنها بعد ذلك : « ولما ذهبت اليها سنة ٦٢ وجذتها قطعة من أوربا ١ » كما يقول بصدد الحديث عن اتساع « السكك والطرق » فى مرسيليا ، « والآن صارت الاسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك » ويبدو أن تلك العبارة قد أضيفت الى الكتاب بعد ذلك . كما نراه ينوه بفضل الوالى فى هذا السبيل فيقول :

« ولهذا تنبه المتولى على بلاد مصر — القاهرة — أن يرجع اليها شبابها القديم ويحيى روثها الرميم ، فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا ، ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا ، ويلتجىء اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى ان العامة بمصر وبغيرها يلومونه فى أنفسهم غاية اللوم بسبب قبوله الافرنج » .

ثم يقول :

« ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن ، بل قد وجلت بعد أن لم تكن ، ويرجى

(١) المصدر السابق : المقالة الاولى ، الفصل الاول .

بلوغها درجة كمال وفوقان ، فما أتقنه (الوالى) على ذلك
كان فى محله اتفاقا ، فانظر الى الورش ، والمعامل ، والمدارس
ونحوها ، وانظر الى ترتيب العساكر الجهادية من الايات
ومدارس حربية ، فانه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ
من فعل الخيرات ، ولا يمكن ادراك ضرورة هذا النظام الا لمن
رأى بلاد الافرنج ، أو شاهد الوقائع .

« وبالجمله والتفصيل فان الوالى آماله دائما متعلقة بالعمار
..... وقد سارع الوالى فى تحسين بلاده فأحضر فيها ما أمكن
احضاره من علماء الافرنج وبعث ما أمكن بعثه من مصر الى
تلك البلاد ، فان علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكيمه .. »^١

ورفاعة يؤمن أن تقدم العلوم والفنون موقوف على همه
الحاكم واهتمامه « فاننا كنا — كما يقول — فى زمن الخلفاء
العباسيين أكمل سائر البلاد تمدنا وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا
يعينون العلماء وأرباب الفنون » ، ويشير الى أن « المأمون
ابن هارون الرشيد كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك وهو الذى
قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده
بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة وخمسا وثلاثين دقيقة .
فالعلوم — كما يستطرد فى قوله — لا تنتشر فى عصر الا باعانة
صاحب الدولة لأهله ، وفى الأمثال الحكيمه : الناس على دين
ملوكهم » . ثم ينوه ببراعة الافرنج وتدبيرهم وعدلهم

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

« ومعرفتهم في الحروب » لذلك قويت شوكتهم ، ولكنه لا يشير الى أثر الشعب عند (الأفرنج) في هذا ، وقد عرف في باريس أن الشعب وليس الحاكم هو مصدر القوة .

وسواء أشاد رفاعة بفضل ولي النعم (الوالي) ملقا أو وفاء لما للوالي من فضل عليه ، فقد كانت تلك شيمة عصره ، وشيمة كثير ممن جاءوا بعده من الكتاب والمؤرخين في مصر في التنويه بفضل الحاكم وماثره . وقد يحفز التنويه همة الحاكم ان كان صاحب همة ، أو يملأه غرورا ويحملة على الاثم ان كان جهولا .

ولكنه يعنى تماما حقوق الرعية ويعلم أن « العدل أساس العمران » فيذكر في « تدبير الدولة الفرنسية » « أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد » وأن الفرنسيين « قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » ويذكر « كيف اتقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلاتسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا » .

ولا يفوته أن يستشهد بما قاله « العلماء والحكماء » في هذا ، فمن « كلام بعضهم : ظلم النيتامى والأيامى مفتاح الفقر ، والحلم حجاب الآفات ، وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه إياها وجده فيها ، وقال آخر : لا سلطان الا برجال . ولا رجال الا بعمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ، وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام

الرعايا لا على قلوبهم ، وقال بعضهم : أبلغ الأشياء في تدير
المملكة تسديدها بالعدل ، وتحفظها من الخلل .

ولا شك أنه في اهتمامه بترجمة الدستور الفرنسي — أو
ما دعاه « بالشرطة » ترجمة لكلمة (La Charte) الفرنسية —
قد أراد أن يبرز ما للحكم الدستوري من مزايا ومن ضمان
للحرية والعدالة وتقدم البلاد . وإن لم ينوه بحاجة مصر إليه ،
ولكنه يتمنى في مناسبات كثيرة أن يرى بلاد الاسلام بمثل
ما رأى عليه بلاد الفرنسيين ، وإن كان يسفر في أحيان عما
يضنيه قلميحا لا تصريحيا فيقول ان « مدة اقامتي بباريس لم
أسمع أحدا يشكو من المكوس والجبايات أبدا خصوصا
وأصحاب الأموال في أمان من الظلم والرشوة » وكاتبا من
سوءات الحكم في مصر . كما كانت الضرائب ترهق المصريين
أشد الارهاق وتحملهم على الشكوى والتذمر .



استوى الشرق والغرب في عقله وقلبه على وفاق ، فاستطاع
أن يوائم عقيدته وتقاليده الصالحة وعلم الغرب وما حسن
من تقاليده ، فظل حفيظا على تقاليده وفروض دينه ، فكان
يقوم في باريس « بأداء الفروض والسنن أتم قيام ، ولم يأكل
شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام ، وواظب على تلاوة
القرآن الشريف ، ومطالعة العلم المنيف »^١ وجمع « بين نسبة

(١) حبة الهم : ص ٢٢

الأزهر الحقيقية ، واكتساب العلوم الأجنبية ، اللتين بانضمامهما الى بعضهما صار هذا الشريف الجليل نافعا لأوطانه ، رافعا ألوية العلم في زمانه « ١ .

ولم يغب عنه ما صارت اليه بلاده من تأخر ، فيرد العلة الى الجهل وفساد العادة ، ويقرنها بما صار اليه الفرنسيون من تقدم في العلوم والفنون ، وفي محاسن العادات كالنظافة والصدق ووفاء الوعد ومحبة الغرباء ، وكثيرا ما يرى من تلك الطبائع الحميدة ما هو شبيه « بطباع العرب » ، وان عد عليهم كثيرا من النقائص التي تخالف عرف العرب وعقيدة الاسلام ، فمن « خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة ٢ » . ومن عقائدهم القبيحة قولهم ان عقول حكمائهم وطبائعيهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكي منها ٣ .

فلم يفتن رفاعة بالغرب الا بقدر ما استوى في عقله من أسباب نهضته وتقدمه ، ولم يجحد للشرق سبقه في الارتقاء وان جحد منه تخلفه وتقاعسه وهو أولى من الغرب بالمحامد .

(١) المصدر السابق : ص ٢٨

(٢) تخلص الأبريز : المقالة الثالثة ، الفصل الثاني .

(٣) تخلص الأبريز : المقالة الثالثة ، الفصل الثاني .

مجاور من طهطا

لم يكن الأزهر يوم أمه رفاعة الطهطاوى مجاورا يطلب العلم ، خلوا من الفكر والتطلع والحركة ، ولم يكن من الجمود على ما نظن في يومنا هذا حين تتحدث عما انتهت اليه البلاد من جهل وتخلف أيام العثمانيين ، فقد ظل موئل المصريين حين يحيف بهم حيف الممالك ، أو يستبد بهم عسف العثمانيين ، وكان لعلمائه رأى يطاع وكلمة تسمع ، يهابها العثمانيون ويخشوها الممالك ، وكان بعض العلماء من أربابه على زهد يقيهم من الهوى ، وقناعة لا يفسدها نعيم السلطان أو جود الأمير ، وكانوا في الحق على شريعة الله غير هيايين ، يجبهون الأمير بما هو حق فلا يملك لهم خلفا ، وإذا هو لما يرون مطيع .

وعرف نابليون لهم هذا فعمل على أن يجذبهم الى صفه ليكولوا له عونا على حكم البلاد فأخلفوا ظنه ، وكانت شرارة الثورة ضد الفرنسيين من الأزهر ، وبهم استعان محمد على على منافسيه فرفعوه الى الولاية ولرأيهم استجاب السلطان فأقره عليها ، ثم باعد محمد على بينهم وبين الناس ، وحال بينهم وبين سياسة الدولة فهان أمرهم على يديه .

وكان الطهطاوى يوم ارتقى محمد على أريكة الباشوية المصرية عام ١٨٠٥ ابن نيف وأربع سنوات ، فقد ولد في طهطا

سنة ١٨٠١ ، من أسرة منسوبة تنتهي أصولها الى جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن « البضعة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت رسول الله سيدنا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم »^١ .

وتنقل الفتى الصغير مع أبيه الذى ضاقت به أسباب العيش فى بلده ما بين منشأة النيدة بالقرب من أخميم وقنا وفرشوط لا يعوق أباه الترحال عن تحفيظه القرآن ، حتى آب الى بلده طهطا وفيها أتم حفظ القرآن « وحفظ جميع المتون المتدولة فى المعقول والمنقول بمساعدة أخواله من الأنصار الذين ينتهى نسبهم الى الخرج »^٢ .

ثم وفد على القاهرة عام ١٨١٧ والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيها دروسه^٣ ، وأصبح أهلا للتدريس بالأزهر .

وكان الأزهر الذى أمه الطهطاوى طالبا للعلم عام ١٨١٧ غير الأزهر الذى حذرره نابليون يوم جاء بحملته الى مصر ، فقد حل به ما حل بشعب مصر من عنت الوالى الجديد واستشاره بالأمر دون شريك ، فقد عزم محمد على منذ البداية على ألا يدع للمصريين يدا فى أمور دولته ، وأمر بذلك الى فرنسى

(١) انظر سلسلة النسب فى حلية الزمن وفى المخطوط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ ، ومناهج الالباب : فى مطلب تقليد القاضى محمد بن أبى بكر حسام الدين المنفلوطى الطهطاوى قضاء مصر .

(٢) حلية الزمن : ص ٢١ النسيال : وقاعة رافع الطهطاوى ص ٢٢

يلقى « منجان » عاش في مصر حينذاك وأرخ لتلك الفترة ،
« فروى أنه قابل الباشا مرة عندما جاء القبطان التركي الى
الاسكندرية في عام ١٨٠٦ يحمل أمر نقله الى سلايك ، فقال
له الباشا في أثناء ذلك الحديث : لقد ملكت مصر بالسيف ، وئن
أتركها الا بالسيف . ثم جعل يبين له أنه لا يعتد في مقاومة
السلطان الا بجنوده وقوته ، وانه لن يدخل شعب مصر في
أمور الدولة مرة أخرى »^١ .

ولما قصد السيد عمر مكرم مع وفود أهل القاهرة عام
١٨٠٧ يسأله أن يشرك الشعب في الدفاع عن البلاد أمام
الانجليز ، « فمش لهم وبش ثم شكرهم على استعدادهم
الكريم ، ولكنه أفضى اليهم بأن واجبهم في النضال قد سقط
عنهم ، بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة بالدفاع ، وان حسبهم
من الدفاع أن يبذلوا من المال ما يكفي لتفقات الجنود ومؤونة
الحرب »^٢ .

وبالرغم من أن انتصار رشيد على الانجليز قد تم على يد
الشعب ، ولم يكن لجند محمد على يد فيه ، بل ان ما لقيه أهل
رشيد من جنده كان أشد وأقسى مما لقوه من الانجليز ، فان
محمد على كان قد أخرج الشعب نهائيا من حسابه وعزم على أن
يأخذ الأمور بنفسه دون شريك .

وكان آخر دور للعلماء والمشايخ في السياسة عام ١٨٠٩

(١) السيد عمر مكرم : ص ١٧٥

(٢) المصدر السابق ص ١٧٠

حين دعت الحاجة محمد على الى تنظيم الضرائب وزيادتها ففرع
الأهالى الى العلماء بالأزهر ووافاهم اليه السيد عمر مكرم
« وتعاهدوا وتعاهدوا على الاتحاد وترك المنافرة » كما يقول
الجبرتي وكتبوا عريضة احتجاجا على الباشا وامتنعوا عن
مقابله ، ولم ير الباشا الا أن يأخذهم بالحيلة ويوقع بينهم
مستغلا أهواءهم وما كان في نفس بعضهم من حسد للسيد
عمر مكرم ، فقد كان هو وحده من يخشاه محمد على ويخشى
نفوذه على الجماهير ، ونجح في أن يؤلب العلماء على الزعامة
الشعبية ، واقلب الأمر من الاحتجاج على الباشا الى الاحتجاج
على السيد عمر مكرم ، فقد جاءه الشيخ المهدى والشيخ
الدواخلى « وهو متلىء بالغيب مما حصل من الشذوذ وقض
العهد — كما يقول الجبرتي — فأخبروه أن الباشا لم يحصل
منه خلاف ، وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ، ولكن نفسى لا تقبل
التحكم ، والواجب عليكم اذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا أن
تنصحنونى وتشفعوا ، فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول
نصحتكم ، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا
لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع وتهيج
الشروع وقيام الرعية كما كنتم تفعلون أيام المماليك ، فأنا
لا أفزع من ذلك ، وان حصل من الرعية أمر ما فليس لهم
عندى الا السيف والانتقام ، فقلنا له : هذا لا يكون ، ونحن
لا نحب ثوران الفتن ، وانما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى ،
وندعو الله يرفع الكرب ، ثم قال : أريد أن تخبرونى عن اتبذ

لهذا الأمر ، ومن ابتداء بالخلف ، فغالطناه ، وأنه وعدنا بإبطال
الدمغة ، وتخفيف الفايض الى الربع بعد النصف ، وأنكر طلب
ضريبة المال الميرى عن أطيان الأوسية والرزق من اقليم
البحيرة .

ويستطرد الجبرتي فيذكر فشل الباشا في استمالة السيد
عمر مكرم ، ويكشف عن تفاق العلماء ممن فجع محمد على في
أن يستشير فيهم غريزة الطمع أو يستغل فيهم غيرتهم من السيد
عمر مكرم وحسدهم له ويشير الى « قرضهم للعهد والإيمان » .
واتمى الأمر بعزل السيد عمر مكرم من رقابة الأشراف
وتفقيه الى دمياط وخلع منصبه على الشيخ السادات أحمد
البضالعين في المؤامرة .

وتخلص محمد على من الزعامة الشعبية ، وقضى في الوقت
نفسه على ما كان للعلماء من نفوذ وهيبة في عيون الناس ، ونم
يعد الأزهر مثابة للناس يلوذون به كلما حلت بهم ضائقة أو
يفزعون الى شيوخه كلما ضاقوا بظلم السلطان .

وكان هذا الأزهر هو الذي جاءه الطهطاوى بعد ثمان
سنوات من تلك الأحداث ، ولكن هذا الأزهر بقى ينطوي على
اثارة من العلم والفضل وجد فيها الطهطاوى أكرم نداء لقلبه
وعقله ، فلم يكن غريبا على الأزهر ، اتصل به وجدانه قبل أن
يتصل به عقله وقبل أن يؤمه مجاورا ، فمن خؤولته من كان
« من العلم بمكانة علي ، كخاله الشيخ عبد الصمد الأنصاري
والد الشيخ عبد العزيز أبي الحسن الذي نظم متن المنهج

والقطر ، وله من التخصيصات الفاتحة لغالب ديوان البرعى وتوفى
 وله من العمر ثمان وعشرون سنة في السنة التي ولد فيها صاحب
 الترجمة ^١ وقد نوه بعلهما على مبارك في خطه ^٢ ، ومنهم
 أيضا خاله الشيخ فراج الأنصارى « العالم الربانى الورع
 الزاهد » كما يصفه على مبارك ، وكان « قد تلقى في الأزهر
 شرح الرملى في مذهب الامام الشافعى سبع مرات وكتب عليه
 تهريرات نفيسة » ^٣ ، وخاله « العلامة الشيخ محمد الأنصارى
 المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف وكان أمين الفتوى
 لمشيخة الأزهر في عهد الشيخ حسن المطار » ^٤ ، وقد بنى
 الطهطاوى بابنته بعد عودته من فرنسا ومنها كان أولاده .

وقد كمله أخواله هؤلاء بعد وفاة أبيه ، وعليهم حضر
 « بعض الكتب فقها ونحوا » ^٥ ، و « حفظ جميع المتون
 المتدولة في المحقول والمنقول » ^٦ . فلما أم الأزهر لم يكن هناك
 ما يعسر عليه ، فاستطاع بعد السنة الأولى من دراسته — ولم
 يكن قد حضر منها الا فصلها اذ وفد اليه في منتصف العام
 الدراسى — أن يلقى دروسا في « صغرى الصغرى للسوسى »
 بالجامع الیومفى بمدينة ملوى ، وفي طهطا حين عودته اليها
 حينذاك .

-
- (١) حلية الزمن : ص ٢٢
 (٢) المخطوط : ج ١٢ ص ٥٢
 (٣) حلية الزمن : ص ٢٢
 (٤) حلية الزمن : ص ٢٢
 (٥) المخطوط : ج ١٢ ص ٥٢
 (٦) حلية الزمن : ص ٢١

فلما عاد الى الأزهر في العام الثاني انكب على دروسه
مأثرا ، فدرس « صحيح البخارى » على الشيخ الفضالى ،
و « جمع الجوامع » فى الأصول و « مشارق الأنوار » فى
الحديث على الشيخ حسن القويسنى ، وهو الذى تولى مشيخة
الأزهر بعد الشيخ حسن العطار ، وحضر « الأشمونى » على
الشيخ أحمد الدمهوجى ، وقد آلت اليه مشيخة الأزهر بعد
وفاة الشيخ محمد العروسى ، و « الحكم » لابن عطاء الله
السكندرى على الشيخ النجارى ، ويصفه « صالح مجدى »
بأنه كان « علامة عصره وبركة وقته » ، كما تلقى « تفسير
الجلالين » على الشيخ عبد الفنى الدمياطلى .

ومن حضر عليهم أيضا الشيخ « ابراهيم البيجورى »
والشيخ « محمد حبش » شيخ السادة المالكية ، والشيخ
« الدمنهورى » . وكانوا جميعا من أعلام عصرهم .
وأكثر من لازمه من هؤلاء « الشيخ حسن العطار »^١
الذى تولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشيخ الدمهوجى من
سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٣٥ فى عهد محمد على .

ولم يكن لهؤلاء العلماء شأن بالسياسة بعد أن منعهم منها
محمد على فنجوا من مغارمها ومغائرها وعكفوا على العلم لا عمل
لهم غيره ، وإن كان لبعضهم رأى فيما يحس العقيدة مما لا يجب
الوالى أن يجابه به الجماهير وحده إن دعت الحاجة ، والا
فلا شأن لهم فيما يراه ، وكان من هذا ما أشار به عليه الشيخ

(١) المصدر السابق : ص ٢٢ ، ٢٤

حسن العطار في أن يكون للمبعوثين امام يرعى شئون دينهم
وكان العطار من بين هؤلاء العلماء الذين عكفوا على
المعقول والمنقول من علوم الأزهر لا يعدونها الى غيرها ، ظاهرة
فريدة ، لم يكتف بما جروا عليه ، بل عداهم الى النظر في العلوم
الأخرى « حتى في العلوم الجغرافية — كما يقول الطهطاوى —
فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان
لاسماعيل أبى الفداء سلطان حماه المشهور أيضا بالملك المؤيد ،
وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدت بها أكثر التواريخ وعلى
طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من
تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية
مع غاية الذبابة والصيانة ، وله بعض تأليف في الطب وغيره
زيادة عن تأليفه المشهورة »^١ .

ويقول على مبارك في ترجمته له انه : « اشتغل بفرائب
الفنون والتقاط فوائدها ... واتصل بناس من الفرنساوية فكان
يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة
العربية ، ويقول ان بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها
من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة
من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريروها وتقريبها لطرق
الإستفادة »^٢ .

(١) مناهج الالباب : مطلب انه ينبغي للعلماء الشرعيين ان يتشبهوا أيضا
بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية .

(٢) المخطوط ج ٤ من ٢٨

وكان العطار جواب آفاق محبا للأسفار فساح في البلاد
 العربية وأقام في بعضها زمنا وارتحل الى تركيا ولبت بها حيناً ،
 فأفاده الترحال قدرة على التأمل كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة
 الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم ، فما ونى عن لوم
 الأزهرين على جمودهم وقد كتبهم التي حبسوا أنفسهم فيها
 فيقول : « ان من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع
 رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية ، لهم اطلاع عظيم على غيرها
 من العلوم والكتب التي ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين في
 العقائد والفروع ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر في
 كتب غير أهل الاسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية
 واليهودية والنصرانية ثم هم — مع ذلك — ما أدخلوا في تثقيف
 ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ، ومن نظر في ذلك
 وفيما انتهى اليه الحال في زمن وقعنا فيه ، علم أنا منهم بمنزلة
 عامة أهل زمانهم ، فاز قصارى أمرنا النقل عنهم دون أن نخترع
 شيئاً من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ،
 ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ،
 ولا تطمح نفوسنا الى النظر في غيرها ، حتى كأن العلم فيها ،
 فاذا ورد علينا سؤال من علم الكلام لا نجده فيها ، تخلصنا بأن
 هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها في « جمع
 الجوامع » فلا أصل لها ، أو فكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل
 البطالة ، وهكذا ، فصار العذر أقبح من الذنب وحالتنا الآن
 كما قال ابن الجوزي في مجلس وعظه ببغداد :

ما في الديار أخو وجد نظارحه

حديث نجد ولا خل فجاربه

وهذه نقشة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللفف « ١ » .

وبعد ذلك بسنوات نرى الطهطاوى فى « مناهج الألباب »
يحث أصحاب العلوم الشرعية على أن « يتشبهوا أيضا بمعرفة
المعارف البشرية كالعلوم الحكيمة العملية » فيقول ان محمد على
قد « جدد دروس العلوم بعد اندراسها وأوجدت بعد العدم
رؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قيامها ... غير أنه لم يستطع الى
الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور
ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكيمة التي كبر
تفعها فى الوطن ليس ينكر » ثم يستطرد فينوه بما لا تقانهم تلك
العلوم الى جانب العلوم الشرعية من خير يعم الوطن ويعود
عليهم بالنفع ويقول ان « هذه العلوم الحكيمة العملية التي
يظهر الآن أنها أجنبية هي علوم اسلامية قلها الأجانب الى
لغاتهم من الكتب العربية » ويذكر بعض من جمعوا بين الناحيتين
من علماء الأزهر السابقين .

ولم يكن غريبا أن يالف هذا المجاور الذى يطلب العلم فى
الأزهر شيخه المستنير فيتصل الود بينهما ، ويؤثر الشيخ فتاه
بما لم يؤثر به غيره من فتيان الأزهر . ويفتح له قلبه وداره
فيؤمها « ليتلقى عنه علوما أخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب ،

(١) عبد الله فكرى ص ١١ : عدد ٤٢ من سلسلة أعلام العرب .

وطالما كان يسمعه من رائق أشعاره وفائق ثمره ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره وفريد مصره ، وأنه صاحب القريحة الوقادة ، والفكرة النقادة »^١ .

وعرف الفتى المجاور بإقباله على الدرس والتحصيل ومحاكاة العلماء في التأليف « فنظم أرجوزة في التوحيد بعد مدة يسيرة من انتظامه في سلك طلبة الأزهر ، ولما قرأها على الأستاذ الفضالي وعده بأن يشرحها شرحا لطيفا سهل التناول على الخاص والعام »^٢ .

ولم يقعه عن طلب العلم عسر أو ضيق ، فقد كانت أمه تمده بما يعينه من مال على التفرغ للعلم مما تبيعه من حلى أو عقار « فلم تزل درجة تحصيله للعلم — كما يقول صالح مجدى — فى ازدياد ، حتى بلغ المراد فى جميع ما أراد ، واشتهر أمره وعلا فى الجامع الأزهر قدره ، حتى قيل ان كثيرا من الطلبة فى زمن حضورهم معه كانوا يرجعون اليه فى حل الغوامض ، وكان أشياخه يثقون بفهمه ، ويركنون اليه ، لجودة قريحته وسلامة فقهه » .

ولعله كان يستعين على حياته بالعمل فى أوقات الدرس ، فقد « كان فى أثناء مجاورته بالأزهر يعبر النيل ليقرا بالجانب الغربى منه درسا لجناب حسين بك نجل المرحوم طيوز أوغلو ، ولم يمنعه ذلك عن الملازمة للأزهر ، وهذا فضلا عن تقريره

(١) حلية الزمن : ص ٢٥
(٢) المصدر السابق : ص ٢٥

مدرسا بالمدرسة التي أنشأها بداره محمد لاز أوغلو للمماليك وغيرهم»^١.

ولما أتم الفتى دروسه وأجازه شيوخه على طريقة الأزهر في تلك الأيام^٢ ، تصدى للتدريس فيه ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ونال من العلم أقصى ما يمكن أن يناله راغب في العلم من أبناء جيله في مصر حينذاك . وأصبح المجاور شيخا يتصدر للتدريس في الأزهر ، يقبل الطلاب على دروسه في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض « وما منهم الا من استفاد منه » كما يقول صاح مجدى ، لدقته وحسن أسلوبه وسهولة تعبيره ، وكان ممن تلقى العلم عليه وأخذ عنه « الفقيه المدرس المدقق والعالم المحدث المحقق ، العلامة الشيخ العزب مفتى المدينة المنورة »^٣.

(١) المصدر السابق : ص ٢٩

(٢) لم تكن هناك امتحانات تعقد لطلاب الأزهر على ما نألف في أيامنا هذه ، ولم يكن ما يلقيه الأستاذ من دروس موضوعا للامتحان ولكن الطالب في الأزهر حين يأنس من نفسه القدرة على التصدر للعلم ، بعد أن يتلقاه على شيوخه لمدة تطول أو تقصر حسب استعدادده ، يعلن ذلك على الطلاب والشيوخ ، فيعقد له مجلس يختبر فيه الاساتذة مدى تحصيله وتدور فيها مناقشات عديدة شاملة بينه وبينهم يطول فيها السؤال والجواب للتأكد من سلامة تحصيله فاذا ما أثبت الطالب جدارته واستحقاقه للتصدر للعلم ، أجاز له الشيوخ ذلك ، وأصبح أهلا للتدريس بالأزهر .

وكان الطلاب يجتمعون للدرس على شكل حلقات حول أستاذهم الذي يستقبل القبلة يتحلق الطلاب حوله لكل مكانه الذى يلزمه ، فاذا خلا المكان عرف الشيخ أن صاحبه غائب ، ولكل شيخ في العادة عمود من أعمدة الأزهر يتخذ مكانه الى جواره ، وكان الطلاب يعرفون « بالمجاورين » لمجاورتهم للأزهر ، والاساتذة « بالشيوخ أو المشايخ » .

انظر تاريخ الإصلاح في الأزهر لعبد المتعال الصعدي ، وعبد الله فكرى لمحمد عبد الفتى حسن .

(٣) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨

وشهد له خاله الشيخ فراج الأنصارى وكان قد استمع إليه حين ابتداء في قراءة « المعجم الوجيز في أحاديث الرسول العزيز » فقال له : « لله درك يا ابن الأخت لقد بلغت في العلم درجة الأعلام ، ونلت بمساعدة اللغة مرتبة تقف دون وصفها الأقلام »^١

وبقى رفاعة يلقي دروسه في الأزهر لعامين ، ثم عين عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤) واعظا واماما بالجيش ، في آلاى « حسن بك المنسترلى ثم في آلاى « أحمد بك المنكللى »^٢ .

وفي سنة ١٨٢٦ اختير اماما للمبعوثين الذين أوفدهم محمد على للدراسة والتخصص في العلوم الحديثة .

وبدأ الفتى الأزهرى طورا جديدا من حياته ، أعده للدور العظيم الذى قام به في تاريخ مصر ، فلو لا هذه الفرصة السانحة لمضت به الحياة كما مضت بالآخرين ممن درسوا في الأزهر غفلا لا يحفل التاريخ بهم ، فالبذرة القوية لا تنمو الا في أرض جيدة فاذا ألقيت في البوار لم تنبت ولم تثمر .

(٣) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨

(٤) الرافعى : مصر محمد على ص ٢٨٥

أزهري في باريس

وكان من الممكن أن تمضى الحياة بالفتى الأزهري في باريس كما تمضى مع غيره ممن يذهبون الى باريس أو غير باريس في مهمة أو عمل ، فيؤدون المهمة أو يقومون بالعمل ولا يفيدون من الرحيل أو الحياة الجديدة شيئا . فقد ذهب رفاعة الى باريس اماما للمبعوثين الذين أوفدهم الوالى الطموح « الى فرنسا لدرس مختلف فروع الادارة والفنون والعلوم »^١ ولم « يكن مطلوبا من امام البعثة أن يتعلم علوم الفرنسيين وأنظمتهم ، بل يكفيه أن يؤدي وظيفة الامامة لأعضاء البعثة وما اليها من الوعظ والارشاد »^٢ .

ولكن البذرة القوية تنمو في الأرض الجيدة — كما قلنا — فأدرك الطمطاوى ما لم يدركه رفاقه من الأئمة الآخرين ، فقد كان معه ثلاثة منهم « لم تتحرك نفس أحد منهم الى الاعتراف من مناهل العلم في فرنسا ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة »^٣ . بل لقد أدرك ما لم يدركه المبعوثون أنفسهم من بعد الصيت وحفاوة التاريخ .

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية ص ١٢

(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٨٦

(٣) المرجع السابق .

والبذرة القوية لا تثبت ما لم تجد اليد التي تمهدها وترعاها ، وقد وجد رفاعة في أستاذه الشيخ حسن العطار اليد التي امتدت إليه لتدفع به الى تلك الحياة الجديدة التي أثمرت أبدع الثمر على يد تلميذه النابغ ، فقد رشحه اماما لبعثة الطلاب الكبرى الى باريس عام ١٨٢٦ ، فواتته فرصة العمر فلم يدعها تمر وأفاد منها أعظم الفائدة ، وأصبح الامام دارسا هو الآخر ، ولم يضع وقتا بل أخذ في تعلم اللغة الفرنسية منذ وضع قدمه في الباخرة التي تقله مع أعضاء البعثة الى فرنسا .

وذهب الفتى الى شيخه يودعه ويشكره ، ويسأله النصيح والتوجيه ، فيباركه الشيخ ويدعو له ، ويشير عليه أن « ينبه على ما يقع في هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا هذه البقاع التي يقال فيها : انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وانه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية — على حسب ظني — شيء في تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيين ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها »^١ .

فان الشيخ كما يقول : « مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار » .

ولكن هل يقف جهد الفتى على تدوين ما يرى من غرائب الأمور وعجائب الأشياء ، وهل كان أمل الشيخ فيه أن يقص

(١) تخلص الابريز : فائدة الكتاب .

على هواة الأسفار ما يقع عليه علمهم يمتدون به ويكون لهم
دليلا فيما ينشدون من أسفار ؟

لم يقف جهد الفتى على رواية ما رآه ، وما كان الشيخ
— على ما نعتقد — الا مشيرا في الفتى نزعة البحث والتأمل
والاستقراء ، عله يفيد منها فيفيد بها بعد أوبته ، أو عل التأمل
يحملة على الدراسة والاعتراف من علم الغرب ، فظالما نبه
الشيخ الى قعود الأزهرين عن طلب العلم فيما لا يتصل
« بالعلوم الشرعية » . ولظالما أسمع فتاه دروسا في التاريخ
والجغرافية والأدب ، واستمع الى شعره ونثره . ولعل هواية
الفتى للتاريخ والجغرافية والأدب كانت عن طريق شيخه
القطار .

وفي ربيع عام ١٨٢٦ حملته السفينة الحربية الفرنسية
« لا ترويت » فيمن حملت من مبعوثي محمد على الى فرنسا ،
ومنذ اللحظة الأولى حدد طريقه وعرف منحاه وأدرك غايته ،
فاذا كانت الفرصة قد واثته للسفر « الى تلك البلاد ، وعلمائها
أعظم من غيرهم في العلوم الحكيمة » فان عليه أن يطلبها ، وفي
الحديث : « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك »
و « اطلب العلم ولو في الصين » فاذا « أمن الانسان على دينه
فلا ضرر في السفر ، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة » .
وعليه أن يعمل على « نشر هذه العلوم والفنون » و « أن يبحث
جميع الناس على الاشتغال » بها ^١ .

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

ولا يفوته أن يعدد تلك العلوم والفنون ، فيفرد لها الباب .
الثانى من مقدمة « تخليص الابريز » ولا نراه قد أغفل منها
شيئا وهى ما ذهب فى طلبه المبعوثون ، فهذه العلوم « المعروفة
معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا ،
ومن جهل الشئ فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشئ » .

وأقبل الفتى على الدراسة ، وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية
« واتخذ له بعد وصوله الى باريس معلما خاصا على نفقته »^١

وكان التقاء الشرق والغرب على يديه لأول مرة على وفاق ،
وكان اللقاء من قبل عنيفا يحمل الشرق على الخوف والحذر من
هذا الغرب الذى يطالعه بالحديد والنار ، ويطل عليه دائما
بالعذر والطمع ، فمهما يكن فى الغرب من سوء فان به من
العلم والمعرفة ما نحن فى حاجة اليه ، وهو ما وعاه رفاعة تماما ،
وحدد له طريقه وغايته ، فكان عليه أن ينقل الى الشرق « ما لا
يعرفه » وأن « يجلب اليه ما يجهل صنعه » .

ولعل فى هذا ما يفسر لنا اهتمامه بالترجمة واقباله عليها
والعناية بها عناية حملته على اقتراح انشاء « مدرسة الألسن » ،
فالترجمة هى دعامة اليقظة والنهوض للأمم التى فاتها فضل
السبق ، وهى فى سبيلها لادراك ركب الحضارة والتقدم .

ولم يكن رفاعة الا ناقلا أو مترجما لآثار الغرب يبشر بها
ويحث الناس على الاقبال عليها وتعلمها ، فكان رائد نهضة

وامام يقظة أخذت تدب في أعطاف الشرق النائم ليصحو على
دنيا جديدة وعالم غفل عنه طويلا .

وكان للفتى ميل الى التاريخ والجغرافية منذ كان في الأزهر
طالبا ، ولكنه الآن يقبل على اتقان اللغة الفرنسية لا يعنيه أن
يجيد نطقها كما يعنيه أن يجيد ترجمتها الى لسانه العربى ، فلم
يحفل « بحسن التلفظ بها — كما يقول صالح مجدى — اما
لشروعه في تحصيلها وهو كبير ، واما لانشغاله عن تهذيب نطقه
بها بالانهماك على الترجمة منها الى اللغة العربية » وان كنا
نرجح رأى الأخير ، فقد كان الطهطاوى على عجلة من أمره ،
وما كان يبغي من تعلم اللغة الفرنسية الا أن ينقل الى قومه
علومهم وفنونهم ، كما شغلته القراءة عن الاستماع ، فما كان
يضيع وقتا ليقرأ ، وما كان يسعه النهار فيقضى الليل ساهرا
مكبا على القراءة والترجمة حتى أصيبت عينه اليسرى بالكلال ،
ونصحه الطبيب بالراحة والامتناع عن القراءة ليلا فما سمع
للطبيب وما انتهى عن القراءة بالليل فضلا عن النهار ، خوفا
من أن يعوقه التوقف عن التقدم ^١ .

كان يقرأ كثيرا ويقوم بترجمة بعض ما يقرأ ، فاذا عدنا
الى ما دونه عن قراءاته في باريس وما شغل نفسه بترجمته منها
لقلنا انه لم يكن لديه وقت آخر لغير القراءة والترجمة ، وان
القراءة والترجمة عاقتاه عن الاستماع الذى تجود به لفته

(١) تخلص الأبريز : المقالة الرابعة ، الفصل السادس .

ويحسن به نطقه ، وانه ليقول انه ترجم في باريس « اثني عشر كتابا بعضها كتب كاملة وبعضها نبذات صغيرة الحجم » .

ويبدو أنه كان قليل الاتصال بالناس الا ما وصل العلم والدرس بينه وبينهم والا لأحسن نطق الفرنسية ، ويعنى هذا انه لم يندمج في الوسط الباريسى اندماج الطبع والتطبع وان ألم بحياة الفرنسيين وطبائعهم ، فلقدرته على الملاحظة والتأمل والرؤيا الصادقة من اللمحة الخاطفة أو النظرة العابرة لأهل باريس عامة ، فلم يكن حكمه على الفرنسيين صادقا الا من خلال نظرته للباريسيين ، حتى أخذ عليه « سلفستر دى ساسى » أنه « ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة » .

ولعل انكبابه على الدرس والتحصيل والقراءة والترجمة قد شغل كل وقته فلم يجد منه فسحة للسياحة والتجوال في فرنسا أو أوروبا ، ففي السنوات الخمس التى قضاها بعيدا عن مصر ، لم ير غير باريس وبضعة أسابيع في مرسيليا منها ثمانية عشر يوما في « الكرتينة » لا يرحلها ورفاقه الى المدينة ، ولا نعرف أنه فكر في السفر الى المدن الفرنسية الأخرى أو التجوال في الريف الفرنسى ، فظلت رؤياه قاصرة عن الالمام بحياة الفرنسيين ، وظل هو نفسه على ما نظن بعيدا عن الاندماج في الحياة الباريسية ، وبقيت نظرته بعيدة عن العمق ، وكانت مشاهداته أقرب الى التعميم منها الى التخصيص ، فيصف ما يقع عليه بصره وما يصادفه من سلوك عام وكأنه

يضع دليلا للسياسة ، ويغفل أن يتحدث عن مشاعره واحساساته
الاخطرات عابرة يقرن فيها ما يرى من تقدم الى ما تعانيه بلاد
الاسلام من تخلف يعتذر عنه بسبق المسلمين في ميدان الحضارة
والفضل « للمتقدم أو ليس أن المتقدم يغترف من فضالته
ويهدى بدلالته »^١ ، فاذا عرض لمصر أشاد بفضل الوالى
فلا ينكر انسان « أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت
الآن بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى بلوغها درجة كمال
وفوقان ، فما أتقنه (الوالى) على ذلك كان في محله اتفاقا ،
فانظر الى الورش والمعامل والمدارس ونحوها وانظر الى
ترتيب أمر العساكر الجهادية من آليات ومدارس حرية فانه
من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ، ولا
يمكن ادراك ضرورة هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج ، أو
شاهد الوقائع »^٢.

وتكتمل صورة الكتاب بما يجمله فيه من قراءات ومعارف
أدركها في الأزهر ، أو عرفها مما قرأه أو اطلع عليه في باريس ،
فيستشهد بأحداث التاريخ الاسلامى ، ومأثور الشعر السائد
في عصره ، الى جانب ما عرفه من تاريخ الأمم الأوروبية وعاداتها
وأحوال العالم ونظم الحكم الفرنسى ومظاهر العدل عند
الفرنسيين يزيد بها ايضاحا بما يترجمه منها ، فنراه يترجم

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

(٢) المصدر السابق : نفس الباب .

الدستور الفرنسى ، و يترجم نصيحة لطيب حتى ينتفع بها الناس
فى مصر^١ .

ولكن باريس هى التى وصلت ما بينه وبين الغرب ، وهى
التى كشفت له عن تقدم الحضارة الغربية وأعطته سر هذا
التقدم ومفتاحه : العلوم ، والفنون والصناعات ، لو أخذت
بلاده بها لغدت « سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا » ، أليست
هى أم الدنيا كما يقول :

« ولئن حلفت بأن مصر كجنة

وقطوفها للفائزين دوانى

والنيل كوثرها الشهى شرابه

لأبر كل البر فى إيمانى »

وهى التى دفعته لأن يقدم لبلاده ذخيرة علمه وتجربته فى
تلك البلاد النائية لينتفع بها أهله ومواطنوه ، فحددت بذلك
طريقه ومنهاجه فى الحياة ، فغدا يشر بالتقدم ويرشد الناس الى
سبله ويروى بهم مناهله ، فكان التأليف عنده ثمرة العلم والتجربة
يقدمها لهم فى كتاب أو مقال علمى بها ينتفعون ، بل لا بد لهم
من أن ينتفعوا بها اذا أرادوا صلاح حالهم ، وكانت الترجمة
عنده وسيلة يقدم بها لقومه ما غاب عنهم وما غفلوا عن ادراكه
حتى يتعلموا ويكون العلم هدى تقدمهم وارتقاؤهم .

ولم يتوان — حتى يكون أهلا لتلك الرسالة التى غدت

(١) المصدر السابق : الفصل التاسع فى الكلام من اعتناء باريس بالعلوم
الطبية .

أمل حياته — عن الالمام بكل ما يمكن أن يلم به من معارف وما يمكن أن يحيط به من علوم الغرب وفنونه ، فنراه يقبل على تعلم اللغة الفرنسية وهي مفتاحه الى الأبواب المغلقة من علوم الغرب ، فبعد أيام قليلة من وصوله الى مرسيليا يبدأ في « التهجى والقراءة » وبعد أربعين يوما يكون قد تعلم الحروف والتهجى ، وفي باريس يعود مرة ثانية الى حروف الهجاء وبعد شهر يبدأ في قراءة « أجرومية تومند » ، وتأخذ منه تلك الدراسة ثلاث سنوات كما يقول .

وكان أعضاء البعثة يقيمون معا في بيت واحد خلال السنة الأولى من اقامتهم بباريس ويتلقون الدروس سويا ، ويقول رفاعة : « انا بعد ذلك تفرقنا في مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد فرنساوية ، أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم . واستقل رفاعة بدراسته فقرأ « مع « مسيو شواليه » أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى (لوتري) أجروميتين ، ونراه يعدد أنواع قراءاته ويذكر موادها وأسماء مؤلفيها ، من التاريخ الى الحساب والهندسة والجغرافية وغير ذلك من كتب الأدب ودولوين الشعر الفرنسى والسياسة ، قارة وحده وقارة مع معلمه « مسيو شواليه » ، كما يذكر أنه قرأ « روح الشرائع لمتسكيو » ويقول انه « يلقب عندهم بابن خلدون الاقرنجى » كما أن ابن خلدون يقال له عندهم (متسكيو الشرق) أى (متسكيو الاسلام) ، وقرأ لروسو كتابا

يسمى « عقد التأنس والاجتماع الانساني » ينوه به ويقول
انه « عظيم في معناه » وهو ما نعرفه في الترجمة السائدة
« بالعقد الاجتماعي » .

وتلك قراءات موسوعية بعيدة عن التخصص ولكنها
ذخيرة الثقافة العامة ومعاون لمن يحترف الترجمة ويجعلها
ميدان تخصصه كرفاعة ، ولم تكن تلك الثقافة الموسوعية غريبة
على الفكر العربي ، فقد كان جل علماء العرب ومفكرهم
موسوعات حافلة بشتى أنواع المعرفة ، وطالما خاضوا كالجاحظ
في صنوف من العلم عديدة ، حتى من تخصص منهم وبرز في
علم من العلوم كان له بالعلوم الأخرى المام واسع ، وظل هذا
طابع الفكر الأوربي حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ولعل رفاعة حين أخذ بهذه الدراسة الموسوعية كان يبغي
أن يلم بكل ما تحتاجه بلده منها ، الا أننا نراه في ميدان التأليف
يكاد يختص التاريخ بكل ذاته ، أما في ميدان الترجمة فيقطف
من كل الثمار ما فيه نفع لمواطنيه من التاريخ الى الجغرافية الى
الهندسة والطب وكل ما هوته نفسه أو كلف بترجمته حين عاد
الى مصر .

وفي الترجمة كان امتحانه الأخير ، فقد جمع له « مسيو
جومار » — كما يقول — مجلسا فيه عدة أناس مشهورين ، ومن
جملتهم وزير التعليمات الموسقوي رئيس الامتحان وكان
القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير في صناعة الترجمة التي
اشتغلت بها مدقمكشي في فرنسا .

« وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية في وقائع العلوم ما نصه :

« وصور التلميذ رفاعة أنه قرىء في المجلس دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديل اثنى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمها المذكور منذ سنة وهذه أسماؤها :

« الأول : نبذة في تاريخ الاسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ القدماء ، الثاني : كتاب أصول المعادن ، الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ، ألفه (مسيو جومار) لاستعمال مصر والشام ، متضمنة لشذرات علمية وتديرية . الرابع : كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدهم ، الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية على (مسيو هنبليز) ، السادس : قطعة من كتاب ملطبرون في الجغرافية ، السابع : ثلاث مقالات من كتاب (لجندر) في علم الهندسة ، الثامن : نبذة في علم هيئة الدنيا ، التاسع : قطعة من علميات ضابطان عظام ^١ ، العاشر : أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الافرنج أصلا لأحكامهم ، الحادى عشر : نبذة في (الميثولوجيا) يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ، الثانى عشر : نبذة في علم سياسات الصحة . «
« الدفتر الثانى يشتمل على رحلته وذكر سفره ... الخ .
الى أن يقول :

(١) هكذا في الاصل وقد أوردها الشيال « قطعة من علميات رؤساء ضباط العسكرية » .

« فتفرق أهل المجلس جازمين بتقديم التلميذ المذكور ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع في دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها في نشر العلوم والمرغوب في تكثيرها في البلاد المتقدمة » الخ^١ .

ويتناول رفاعة ما أداه من امتحانات قبل هذا الامتحان الأخير فيقول : ان الامتحان الأول « كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنسية » ويذكر كيف أجازته مسيو جومار على تفوقه باهدائه « كتابا يسمى (رحلة انخرسيس في بلاد اليونان) سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب » ، ثم كان الامتحان الثاني وكانت هدية مسيو جومار له على تفوقه كتاب « الأنيس المفيد للطلاب المستفيد » و « جامع الشذور » من منظوم ومنثور تأليف « مسيو د ساسي » .

وكان مسيو جومار مشرفا على البعثة ، وهو من علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا بونابرت الى مصر ، وغدا بعد ذلك رئيسا للجمعية الجغرافية وعضوا في المعهد الفرنسي ، واضطلع بنشر دراسات علماء الحملة في كتاب ضخيم عرف باسم « وصف مصر » ، وكان على صلة بمحمد علي واستطاع أن يجذب بعوثه الى فرنسا وكان قد اتجه بها الى ايطاليا في أول الأمر .

وتوسم جومار في الفتى الأزهرى نجابة واقبالا على الدرس

(١) المصدر السابق : الفصل السادس من المقالة الرابعة .

واهتماما باللغة الفرنسية ، وكان جومار ولا شك يعرف من خلال اقامته بمصر أن الأزهرين هم أكثر المصريين الملما باللغة العربية وأقدرهم تعبيراً بها ، فاذا قدر لهذا الفتى أن يلم باللغة الفرنسية الملمه باللغة العربية فانه سيغدو بلا ريب رسول الثقافة الفرنسية الى الناطقين بالضاد ، وللفرنسيين اهتمام بنشر لغتهم وثقافتهم لا يعدل اهتمام أمة أخرى من الأوربيين ، ويعلم الفرنسيون أن لغتهم تنتشر في العالم المتمددين انتشارا لا يعدله انتشار لغة أخرى ، فهي لغة السياسة والأدب والفن الرفيع في المحافل الدولية ، فاذا انتشرت الفرنسية في هذا الشرق الناهض أو في المستعمرات المتخلفة فانها ستكون رسول الثقافة الفرنسية الى تلك البلاد ، وتصبح فرنسا كعبة القصاد وأمل المثقفين في كل مكان من العالمين .

لذلك كان رفاعة موضع رعاية جومار فشجعه على دراسة اللغة الفرنسية ووجهه الى الاهتمام بالترجمة ، ولعله حين سمع أنه يدون مشاهداته في باريس أيقن أن هذا الفتى سيكون رسول الغرب الى الشرق ، وأن فرنسا التي فشلت في مد نفوذها السياسى والعسكرى الى الشرق ستفلح في مد نفوذها الثقافى اليه ، وتصبح أكثر الدول حظوة فيه . ولقيت فكرة رفاعة في الكتابة عن باريس تأييده واستحسانه .

ولا نعجب بعد ذلك من أن يكون هذا الكتاب الذى كتبه رفاعة عن باريس أحد الموضوعات التى يتقدم بها للامتحان

الأخير ، وأن ينال هذا الكتاب تقدير المستشرقين الفرنسيين « سلفستر دي ساسي » و « كوسان دي برسقال » ، وأن ينوها به لدى مسيو جومار ، ليكون دليلا على ما أفاد الشيخ الأزهرى من ثقافة الغرب ، وما وعى من ثقافة الفرنسيين فضلا عن المترجمات العديدة التى تقدم بها إليه .

ويبلغ من اهتمام « دي ساسي » بنشر الثقافة الفرنسية في مصر أنه يقترح عليه تصنيف « كتاب يشتمل على فحو اللغة الفرنسية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفي ممالكها ، حتى يهتدى أهل مصر الى موارد تصانيفنا في فنون العلوم والصناعات وممالكها ، فانه يعود لك في بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر »^(١) .

ونراه يجب اليه هذا الأمر بما يعود عليه من فخر ومن خلود الذكر ، وكان « دي ساسي » كان يعلم أن امتداد الموجة الغربية الى مصر وغيرها من بلاد الشرق سيكون موضع تقدير الأجيال المقبلة وتكون فرنسا رائد حركة التمددين اليها .

ولا يغفل « كوسان دي برسقال » فيكتب الى جومار في تقريره للكتاب قائلا : « ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح ، وانه مصنوع على وجه يكون به تفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فانه أهدي لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها ، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه

(١) المصدر السابق : الفصل الرابع المقالة الرابعة .

أدنى من بلاد أوربا في العلوم البشرية والفنون. النافعة أظهر
التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ،
ويدخل عندهم الرغبة في العلوم المفيدة ، ويولد عندهم محبة
تعلم التمدن الافرجى ، والترقى في صنائع المعاش ، وما تكلم
عليه من المباني السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر
به لأهالي بلده أنه ينبغي لهم تقليد ذلك ، وما نظر فيه في بعض
العبارات يدل في الغالب على سلامة عقله وخلوه من التعسف
والتحامل « ١ .

وبعد خمس سنوات قضائها رفاعة في باريس ، عاد الى
بلاده لا ينكر من حضارة الغرب الا ما رآه مخالفا للدين والملة
دون تزمت أو جمود ، فقد عاش في باريس وفيها لاسلامه
وعروبه وبلده مصر ، لا ينقطع عن أداء « الفروض والسنن »
و « لا يأكل شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام » وواظب
على تلاوة القرآن الشريف ومطالعة العلم المنيف « ٢ ، ونراه
يستعيز بالله ممن تنصر من المسلمين الذين تبعوا الفرنسيين عند
رحيلهم عن البلاد وكان قد لقي بعضا منهم عند نزوله الى
مرسيليا وسمع بأخبار الآخرين ، ويستشهد بيت من الشعر
يقول :

كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام

(١) المصدر السابق : نفس الفصل .

(٢) حلية الزمن ص ٢٠٢

ولكن هذا الفتى الأزهرى الذى ذهب الى باريس واعظا
واماما « للأفندية المبعوثين » ، وظل حفيظا على دينه وتقاليده ،
كان أول من يلتقى الشرق والغرب فى عقله وفى قلبه على وفاق ،
فكان رائد المدنية والنهضة الى بلاده وبلدان الشرق العربى
أجمع .

تخليص الأبريز

ويتمثل فيه التقاء الشرق والغرب على وفاق ، فليس الكتاب وصفا لرحلة ، وان أوفى في الوصف والمشاهدة على الغاية ، وليس تهريرا شاملا عن دراسة طالب مجتهد ، أو شاهدا حيا على نشاط أول بعثة تعليمية كبرى فقد على باريس من مصر ، وان عد مصدرا مباشرا لحياته تلك ولدراسة المبعوثين المصريين الى فرنسا ، ولكنه صورة حية للقاء مثير بين الشرق والغرب في العصر الحديث ، ففيه يتماثل النقيضان وتستوى الصورة على وفاق ، فان غدا الغرب موئل الحضارة والتقدم ، فقد أخذ علمه عن الشرق وذلك مما لا ينكره أهل الغرب ، فانهم « يعترفون لنا بأننا كنا أساتذتهم في سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم »^١

وهذه النظرة كفيلة بأن تخلص الفتى من مركب النقص الذي يعتور بعض النازحين الى بلاد متقدمة فيتنكرون لتقاليدهم وعاداتهم ، ويعافون من انقصام الشخصية الذي يعوقهم عن الادراك الصحيح ، وعن تبين الأمور في منهاجها الواضح المستقيم .

(١) تخليص الأبريز : الباب الاول من المقدمة .

بل أنه ليعتز بأنه صاحب الفضل فيستشهد بأبيات من
الشعر تقول :

أنا الشجاع الذي قد كنت في ظمأ
وسط الهجير على الرمضاء في الوادي
فجدت بالماء فضلا منك مبتدئا
بغير قل ، فأشفي غلة الصادي
هذا جزاؤك منا ، لا نمن به
فضلا بفضل وكان الفضل للبادي

ولا يورثه بالتالي مركب الاستعلاء فيرقد الى الجمود ، أو
الوقوف عند احياء ما غير من تراث الماضي ، ولكنه يؤمن
بالتقدم والتطور ، فاذا كان الغرب قد أخذ عن الشرق ، فقد
دفع عجلة التقدم أشواطاً الى الأمام ، وعلينا أن نأخذ عن هذا
الغرب مآثره في التقدم ، وأن نحى في هذا الشرق ما غير من
مفاخره ، فنأخذ بسنة الاحياء كما نأخذ بسنة التجديد لتصل
اليقظة بين الماضي والحاضر على هدى وبصيرة .

قالى شره الشيخ في تحصيل المعارف الجديدة والتنويه بها ،
لا يغفل تراث ماضيه ، فتارة يتحدث عما كانت عليه بلاد
الاسلام من « تمدن ورفاهية وتربية زاهرة زاهية » بفضل
« اعانة صاحب الدولة لأهله » ، وعن اهتمام الخلفاء والملوك
بالعلوم والفنون حتى كان منهم من « يشتغل بها بنفسه »
كالأمون بن هارون الرشيد الذي أغرم « بعلم الفلك » وهو
الذي حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده

بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة وخمسا وثلاثين دقيقة « ١ » ،
وتارة يقرن ابن خلدون الى منتسكيو وينوه بتقدير الغرب له ،
ويشبه « دى سامى » « بالفارابى » ، ولا يفوته اذ يلقى نظرة
على أعمال « دى سامى » العلمية ، أن يستطرد الى ترجمة
حياة الفارابى واعجازه فى كل لغة وفن ، وكأنه يدل على صدق
ما قاله من قبل من فضل الشرق على الغرب . ولعله بهذا كان
يستثير حمية الشرق الى النهوض والتقدم .

فالشرق ماثل فى ذهنه على الدوام لا يغفل عنه ، يشجيه
ما يشجيه ، ويأسى لما يلم به من عسف الليالى ، ويطرب لما يلقاه
من خير ، فقد كانت حميته للوطن هى التى تقود خطاه وتحفزه
لكل عمل يقوم به مؤمنا بأن فيه أعظم النفع لبلاده ، حتى
ليتلمس كل ما يعلى من شأنه ويشيد بذكره ، فمن قراءاته فى
الصحف اليومية والشهرية يعثر على رسالة بعث بها فرنسى
متطوع للحرب فى صفوف الروس ضد الدولة العثمانية
سنة ١٨٢٨ ، يشيد فيها ببسالة العثمانيين ، وشجاعة جند
الاسلام فيقوم بترجمتها مثالا لما كان يقوم بترجمته عن تلك
الصحف ، ولكنه يضمنها كتابه هذا ، فخرا منه — كما نعتقد —
بما يحرز الاسلام من نصر وبما ينوه به الأعداء من شجاعة جنده .
والرسالة بحق شهادة فخر لجند الدولة العثمانية أو جند
الاسلام ، ففيها يقول المتطوع : « ان هذه أول مرة التحم فيها

(١) ما بين الأقواس من نفس الباب .

جئنا مع الصفوف الإسلامية » ثم يقول بعد دهشته وذهوله
مما يرى : « وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة في الحروب ،
فبعساكر الاسلام لها مصادمة قوية بعزل عن الهروب ، وهذه
المصادمة هي التي تستسهل الخطر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ،
ينتج منها ثمرتان : أنها تلقى الحيرة في عقول الرجال ، والثانية
أن عاقبتها دائما تفرغ الفزع في قلوب الأعداء ولو كانوا من
الأبطال ، ولو شاهدت عينك ما شاهدته من أن الفرسان
العثمانية تروع الانسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها
المدحش المعجب ، ومشيتها على صوت الألحان الوحشية ،
وصهيل الخيول الكردية ، وتزولها كالصواعق على المشاة
الموسقوية ، لحكت مثلى بأن هذه الحراية تطول ، وأن
اضطرام نارها قل أن يزول ، أو ليس أن للدولة العثمانية
فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة عليا بنظام غريب ،
أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن
خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها في الاقدام
والاحجام ، يبلغ عليها في الحراية المقصود والمرام ؟ فياويل
العساكر القراية التي يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة
لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة على قوتهم الجهادية ، دعامة
غيرتهم الاسلامية والوطنية »^١ .

ولا نجد تعليقا لرفاعة على تلك الرسالة ، ولعله خشى أن

(١) المصدر السابق : الفصل الخامس من المقالة الرابعة .

يتهم بالتعصب الدينى من قبل الفرنسيين ممن يعرف أنهم سيقراون كتابه ، ولعله كمادته يترك الحقيقة وحدها لتعبر للقارىء عما يريد ، ولكن مما لا شك فيه أن الرسالة ترجمة صحيحة لمواقفه الوطنية والاسلامية فلسه ونحسه في كل فصول الكتاب .

ولكنه في مناسبة أخرى يعلن عن رأيه اعلانا لا يسمه بالتعصب ، ويضفى عليه من الغيرة الوطنية والقومية ما يعد فضيلة لدى الفرنسيين فلا يؤخذ بلوم ولا يجابه بماخذ ، فنراه يبدى غبطته لما قال ملك فرنسا ورئيس وزرائه « بولنياق » على يد الفرنسيين الذين ثاروا على حكومتهم سنة ١٨٣٠ بعد غزو الجزائر بوقت قليل فيقول : « اعلم أنه جاء الى فرنسا لوقوع خبر وقوع الجزائر في أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وان أظهروا الفرح والسرور به ، فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء « بولنياق » أمر بتسيب مدافع الفرح والسرور ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيه أحزان لأجل هذا خلق الزمان
وصار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث أن مراده تفذ ، وانتصرت فرنساوية في زمن وزرائه على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت فرنساوية عليه وعلى ملكه فصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة ، على

أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ،
وملك الفرنسيين خرج من مملكته يتقدم على ما وقع منه ،
وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول وكان هذا هو عاقبته
على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضى ذلك بل
بمجرد ارضاء هوى النفس ، وإذا نصر الهوى بطل الرأي .
» ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ،
ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على
ذلك جاء إليه ذلك المطران ليهنئه على هذه النصر ، فمن جملة
كلامه ما معناه : انه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الله
المسيحية انتصرت نصره عظيمة على الملة الاسلامية ، ولا زالت
كذلك — انتهى — مع أن الحرب بين فرنساوية وأهل الجزائر
انما هو مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ومعاملات
ومجادلات منشؤها التكبر والتعاضم .

» ومن الأمثال الحكمية : لو كانت المشاجرة شجرا ، لم
تثمر الا ضجرا ، فلما وقعت الفتنة كسر فرنساوية بيت
المطران بعد هروبه وضربوه ، وأفسدوا جميع ما فيه حتى انه
تخفى ، ولم يعلم له أثر ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته
ثانيا ، ولا زال مذموما مخذولا ، قال الشاعر :

لا تعجبين رويدا انها دول

دنيا تنقل من قوم الى قوم

» ثم ان فرنساوية لما رأوا أن « شرل العاشر » أخرج
« باشا الجزائر » من مملكته أيضا ، صاروا يهزءون « بشرل »

العاشر ويصورونه هو وباشا الجزائر في الطرق ، ويكتبون في وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة ، فمن جملة ذلك أنهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر : وأنت أيضا جاءت نوبتك ؟ ! » .

ويستطرد رفاعه في ذكر سخرية الفرنسيين بملكهم المعزول وتنديدهم به ونشر مثالبه ومخازيه ، وقد خرج ذليلا مهانا فقيرا في حين خرج « باشا الجزائر » كريما عزيزا غنيا ، ويتندرون بأن « الباشا المذكور يقول « لشرل » العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ، وان لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا على سبيل الصدقة من الناس ؟ يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و « شرل » العاشر خرج من بلاده فقيرا »^١ .

وختم رفاعه بهذا التعليق حديثه عن ثورة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ ، معللا هذا الحديث بأهمية تلك الثورة ، فانها تعد عند الفرنسيين من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه .

وليس غريبا أن يتحدث رفاعه عن هذه الثورة ويذكر أسبابها ودواعيها فقد أجمل كتابه كثيرا من المعارف ، وان كنا لا نحمل الحقائق فوق طاقتها ، الا أننا نرى أن الحديث عن الثورة التي أفرد لها مقالا من سبعة فصول بعد أن تحدث عن

(١) المصدر السابق : الفصل السادس من المقالة الخامسة .

نظام الحكم في فرنسا وترجم مواد الدستور الفرنسي ، دالة واضحة على حرص الشعب الفرنسي على حقوقه ، ولعله أراد أن يقول بطريق غير مباشر ان الأمم الراقية هي التي تحكم نفسها بنفسها ، وان حرص الأمة على حقوقها هو الذي يحميها من عسف الحاكم وبطش السلطان . ولا يفوته أن يسفر غير متخرج عن ذاته وغيرته على بلاد الاسلام حين يثبت عاقبة المعتدين على الجزائر في فرحة لا يخفيها وان تنكب الافصاح عنها الا بتصوير ما كان من الفرنسيين نحو المعتدين ، بل أنه ليحاول أن يبرئ الفرنسيين من تهمة الاعتداء فيقول انهم « تلقوا هذا الخبر من غير حماسة » وان تدارك ما يمكن أن يحمله هذا القول من مجافاة للحقيقة فيقول : « وان أظهروا الفرح والسرور به » كما يحاول أن يبرئهم من تهمة التعصب الديني فيسندده الى « المطران » و « الملك » أما الفرنسيون فلم تكن الحرب بينهم وبين الجزائر « الا مجرد أمور سياسية ومشاحنات وتجارات » .

وما من شك في أن رفاعة قد لقي كثيرا من العناء الذهني في كتابه « تخليص الابريز » فهو في غيرته على بلاد الاسلام والمسلمين يعمل جاهدا على ألا يثير نزوات المتعصبين من الفرنسيين ، فانهم على ما يتمتعون به من حرية دينية ، ومن نزعة بعضهم الى الاتحاد مما يستقبحه رفاعة منهم ، أشد الأمم

تعصبا وحفاوة بالتبشير والمبشرين ، وقد سارت اعلامهم الاستعمارية وهي تحمل دعوة التبشير الى المستعمرات ، ولا نعتقد أن ذكريات الحروب الصليبية قد غابت عن رفاة ، ولكنه لا يجب أن يعرض لهذا الجانب من حياتهم أو يستثيره ، وان انزلق اليه فانه يكتفى بالعرض دون التعليق ، شأنه في هذا شأن ما ذكره عن الدستور الفرنسى وثورة الفرنسيين على شارل العاشر وحكومته وامتداحه لهذا الدستور ، ولتقييد سلطة الحاكم ولنظام الضرائب مما يمكن أن يكون موضعاً للمقارنة لدى المصريين وان لم ينزلق الى هذه المقارنة ، ولعله يعتذر عنها بأن « غالب ما فيه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم »^١ وان كانت « قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد »^٢.

ويبدو أن محمد على لم يلق بالا الى هذا الحديث عن الدستور الفرنسى وحقوق الرعية ، وهو الحاكم المستبد ، ليمانا بأن السواد الأعظم من المصريين ليسوا على درجة من الثقافة أو الوعي القومى الذى يدفع الشعوب الى مقاومة الاستبداد والطغيان كما قاوم الفرنسيون نزعة شارل العاشر الاستبدادية ، فقد لقي تخلص الابريز بعضاً من حفاوة محمد على « فحاز اعجابه قبل نشره ودفعه هذا الاعجاب الى الأمر بطبعه ، وأصدر

(١) المصدر السابق : الفصل الثالث من المقالة الثالثة .

(٢) المصدر السابق : الفصل الثالث من المقالة الثالثة .

أمره بقراءته في قصوره وتوزيعه على الدولوين والمواظبة على تلاوته والانتفاع به في المدارس المصرية « ١ » ، وطبع الكتاب لأول مرة سنة ١٨٣٤ ، ولعل ما فيه من التنويه بفضل الوالى هو ما حمل الوالى على نشره والأمر بقراءته في قصوره ودواوينه ومدارسه حيث يلهمج الجميع بفضل ولى النعم .

أما العامة أو السواد الأعظم من الشعب فليس هناك ما يخشاه منهم ، وهم في الغالب ممن يسيئون الظن بمن عاشر الأوربيين من المسلمين ، فلا يقبلون على الاستماع اليهم أو قراءة كتبهم مما يشير اليه بعض المؤرخين ^٢ ، وبصوره الرحالة الانجليزى « ادوارد لين » فيما يرويه عن رجل جاء يطلب نسخة من تخليص الابريز من كتبى كان يجلس عنده ، فسأل أحد الحاضرين عما فيه ، فتطوع رجل للإجابة ساخرا من الكتاب وصاحبه مما يبين رأى العامة فيه بقوله « أنا أقص عليك نبأ هذه الرحلة بالحق ، انها تحتوى على وصف سفر رفاعة من الاسكندرية لمسيليا ، وعلى ما جرى له أثناء هذا السفر ، عندما سكر وعربد ، عند ذلك أمر الربان بشد وثاقه الى صارى السفينة وجلده ، ثم نزل بلاد الافرنج حيث طاب له لحم الجوزير ومعاشرة النساء الافرنجيات ، ثم بعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار عاد الى مصر » ^٣ .

(١) حلية الزمن ص ٦١

(٢) تقديم تاريخ التعليم في مصر محمد على .

(٣) بدوى : رفاعة ص ١٤٠

فلا صير ادن من سر بصيص اد برير على اخاص من
رجال دولة محمد على وهم ممن يدينون بنعمتهم له ، وفيه من
الثناء عليه والاعتراف بفضله ما يعلى من شأنه ويؤيد حكمه .

وقد تجنب رفاعة في ذكر آرائه ووصف مشاهداته ما يمكن
أن يؤخذ عليه مع ما اتسم به من صراحة لا تجرح ، فمما يأخذه
على الفرنسيين من بخل لا يرى الفرنسي فيه بخلا وانما هو الحرص
القمين بالخطر اللبيب ، بل انه ليرى في بعض ألوان الكرم سفها
أو رغبة في التباهي هو في غنى عنه ، ولا يؤذيه أن يوصف
بالبخل ، بل أن رفاعة نفسه لا يرى فيه منقصة للفرنسي مادامت
تلك هي خلة الشعوب جميعا و « السبب في ذلك هو أن الكرم
في العرب » . وما يأخذه على نسائهم من اباحية وعلى رجالهم
من استسلام للنساء مما يراه العربي رذيلة أو ضعفا لا يراه
الفرنسي أو العربي رذيلة أو ضعفا ، بل قد يراه نوعا من اللباقة
أو من قبيل الحرية التي يتمتع بها الجنسان على السواء ، فاذا
ثبت لأحدهم « فجور زوجته » هجرها واتفصل « عنها مدة
العمر » بعد اقامة « دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج
دعواه بحجج قوية على رءوس الأشهاد ، تتلوث فيها
الذرية بالفضيحة وان كانت بدون لعان ، ولا تعرض للأولاد ،
وهذا يقع كثيرا في العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس
المرافعة الخاص والعام ، فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه
ينبغي الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

« لا يكن ظنك إلا سنيًا بالنساء ان كنت من أهل الفطن
ما رمى الانسان في مهلكة قط الا ظنه الظن الحسن »^١
فكان رفاعة لا يأخذ على الفرنسى غير حسن ظنه بالنساء
مع ما يجب على الرجل من حرص مع النساء ان لم يسىء بهن
الظن ، ولا نعتقد أنه بقى على هذا الرأى ، فقد كان يرى أن
عفة المرأة فى تربيتها وفى ثقة الرجل بها ، وكان أول من دعا
الى تعليم المرأة واقامة العلاقات الزوجية على أساس من الود
وحسن العشرة والتفاهم المشترك بين الرجل والمرأة مما يكثر
معه الرزق والثروة ، وتحسن تنشئة الأولاد ومعاملة الخدم^٢
ولكن الذى يستنكره رفاعة من خلق الفرنسيات هو « فلة
عفاف كثير من نسائهم » فالعفة والحياء وأمانة الزوجين
وصدقهما فى المحبة من أسباب « توطد دعائم البيت »^٣ .
فالنظرة التى ينظر بها رفاعة الى أخلاق الفرنسيين
وسلوكلهم هى نظرة العربى المسلم الذى يستمد خلقه من
فضائل دينه ومجتمعه ، على خلاف ما يراه الفرنسى الذى يدين
« بالتحسين والتقبيح العقلين »^٤ والذى هجر دينه فلم يعد له
« من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم
الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمة دينهم أو أوجبه ... ويقولون

(١) تخلص الابريز : الفصل الثانى من المقالة الثانية

(٢) المرشد الأمين : ص ٢٧٣

(٣) المصدر السابق : ص ٢٠٦ - ٢١٥

(٤) تخلص الابريز : الفصل الثانى من المقالة الثانية .

ان سائر تعبدات الأديان التي لا نعترف بحكمتها من البدع والأوهام»^١.

ومن مظاهر هذا الاختلاف بين عقلية الشيخ المسلم والفرنسي الذي ينكر ما لا يآلفه العقل من دينه ، ما يأخذه الشيخ على الفرنسيين من افكار « للقضاء والقدر » مع أن العاقل « من يصدق بالقضاء ويأخذ بالحزم في سائر الأشياء وإن كان لا ينبغي للإنسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فإن من الأمثال التي سارت بها الركبان كثره الاحالة على المقادير »^٢ ، فقد استطاع الشيخ المسلم أن يوفق بين دينه وتفكيره العقلي ، وعجز الفرنسي عنه فلم يعد يدين إلا بما يهديه له عقله .

فاذا انتقل بنا رفاعة الى مافى باريس من حكمة وعلم فانها « من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية »^٣ ، وكأن رفاعة قد أراد أن يضع أمام مواطنيه ما يمكن أن يأخذوا به من حضارة الغرب وتقدمه دون الوقوع في مثالبه ومساوئه ، مما يبدو معه قدرته على التوفيق بين دينه وتقاليده وبين مظاهر الحضارة الفرنسية والتقدم الغربي ، وتبدي فيه الحالة العقلية والنفسية التي كتب بها « تخليص الأبريز » .

فقد ذهب رفاعة الى باريس وهو يزعم أن يكتب شيئاً عن سفرته تلك « ليبقى دليلاً يهتدى به الى السفر اليها طلاب

(١) الفصل الثاني مشر من المقالة الثانية .

(٢) الفصل الثاني من المقالة الثانية .

(١) نفس الفصل .

الأسفار » ويعرف الناس بأحوالها وأحوال أهلها ، ويرضى أستاذه « المولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار » . ولكن باريس تكشف له عن دنيا لعلمها لم تخطر بباله ، وعن حياة ان داعبت خياله ، فقد بدت في لهوها وجدها أبعد ما تكون عن شطحات الخيال ، وان لم يقصّ علينا كيف تخيلها قبل أن يراها ، وان قيل انها عروس الأقطار وسمع من حياة الفرنسيين في القاهرة من شيخه « العطار » ، أو مما يتناقله الرواة من أخبار جند « بونايرته » فان الحياة في باريس وفي قلب المجتمع الفرنسي أبعد ما تكون — دون شك — عن حديث الرواة وعما رآه المصريون من جند « بونايرته » . وعن قول قد لا تصدقه الحقيقة .

فليس ما يكتبه اذن وصف رحلة أو تعريفا بعروس الأقطار ، ولكنه شيء جديد ، كشفت باريس عنه : هو علم باريس وفنون باريس وصنائع باريس « فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج » فظل طوال اقامته بها « في حيرة على تمتعها بذلك وخلو مسالك الاسلام منه »^١ ، وعليه أن ينقل الى بلده هذا الشيء الجديد ويعرف أهله به .

وفي هذا تتحدد غاية الرجل وآماله لا في كتابه « تخليص الأبريز » بل في كل ما جرى به قلمه وما قام به من عمل في حياته ، فكان رائد نهضة وبشيرا بالبعث الجديد . ويصبح « تخليص الأبريز » دعوة خالصة للتقدم والارتقاء ، تختلط

فيه الرغبة بالحسرة والتطلع بالأمل ، والحمية الدينية والقومية بالتححرر والانطلاق من اسار الجهل وقيوده الثقال الى رحبات العلم الفساح . ويغدو موسوعة لألوان من المعارف يرى أن قومه في حاجة اليها ، فبعد أن يتحدث عن أسباب سفره وصحبه الى باريس من رغبة في اكتساب ما تحتاجه بلاده من العلوم الحديثة التي دفعت أوروبا الى التفوق والارتقاء والأمل في أن يشر كتابه ثمرته المنشودة في يقظة « سائر الأمم الاسلامية من عرب وعجم » ، يتحدث عن « العلوم والفنون المطلوبة والحرف والصنائع المرغوبة » مما وعاه الغرب وفات قومه معرفته ، وكأنه يدلهم الى الطريق الرشيد للارتقاء .

ولا يفوته في سائر فصول الكتاب أن يتناول ألوانا من المعارف قد تبدو غريبة على منهج الكتاب وغايته ، ولكنه يرى فيها فائدة تعود على قومه بالنفع كأدراجه « نبذة من فن قانون الصحة وتدير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة » التي يقول انه قام بترجمتها « في باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها فهي وان كانت تخرجنا عما نحن بصدد الا أن منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة »^١ .

فتخليص الابريز دعوة للارتقاء أكثر منه وصف رحلة ومنهاج للنهوض أكثر منه تعريفا بأمة بعيدة ، وبشير بالبعث الجديد أكثر منه موسوعة لألوان من المعارف حرص على عرضها ، وهو بعد ذلك ثمرة التقاء الشرق والغرب على وفاق .

المعلم

عاد رفاعة ورفاقه الى مصر سنة ١٢٤٦ هـ (أواخر عام ١٨٣١) وقد أدرك غايته من العلم والمعرفة وحدد طريقه ، فان قال انه تكفل « بترجمة علمى التاريخ والجغرافية بمصر السعيدة بمشيئته تعالى »^١ فقد أوفت ارادته عليه وغدا معلم أمة ورائد نهضة . وان عرف أن عمله رهن بإرادة ولى النعم وأن رسالته لا تتحقق الا فى اطار الوظيفة التى يتولاها ، فقد تحرر بمؤلفاته من اسار الوظيفة وإرادة ولى النعم فساق فيها كل ما رأى فيه نفعاً لقومه ووطنه ، وكان فى الحالين معلماً ينقل لتلاميذه ما هم فى حاجة اليه من علوم الغرب وفنونه ، ويكتب لهم ما يقومهم ويرشدهم الى السداد من طريقهم فتخرج على يديه رعييل من الرواد كانوا لبنة النهضة المصرية الحديثة .

وكان يؤمن أن الترجمة هى النواة الأولى فى بناء النهضة العلمية ، فلم يقصر عمله على ترجمة الكتب المدرسية بل عداه الى ترجمة ما هوته نفسه من التاريخ والجغرافية ، وبقدر ما أقبل على ترجمة كتب الجغرافية كان اقباله على التأليف فى التاريخ ، وبين الترجمة والتأليف شغل كل فراغه فلا يكاد يفرغ من أعباء

(١) الفصل السابع من المقالة السادسة .

الوظيفة حتى يكب أحدهما وكأنه يسابق الزمن للوفاء برسائله ، فلا نعرف أنه اقتطع طوال عمره الذي نيف على الخامسة والسبعين عن التحرير والتحير .

وفي القاهرة كانت تقارير جومار قد سبقته إليها وكلها تنوه باجتهاده وتمكنه من الترجمة فعين مترجما ومدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الطب في أبي زعبل . وكانت الدروس تلقى فيها بالفرنسية ثم تترجم للطلبة إلى العربية تحت إشراف مترجم سوري يدعى « يوحنا عنحورى » أجرى له اختباراً دل على امتيازهِ ، وشهد له « عنحورى » عند روسائه بأنه « أستاذى وهو أحق منى بالرياسة ، لأنه أدرى منى بالتعريب ، والتنقيح والتهديب ، وهذه شهادة الحق التى تفضى له بالسبق »^١ .

والى جانب عمله بمدرسة الطب أنيط به الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب التى عرفت « بمدرسة المارستان » ، وكانت تعد الطلاب للالتحاق بمدرسة الطب ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات يدرس فيها الطلبة مبادئ الحساب والهندسة ووصف الكون والتاريخ الطبيعى ، والتاريخ القديم والحديث والمنطق^٢ .

ويقال انه ترجم خلال تلك الفترة رسالة فى الطب ، لم يستدل عليها ، ويرى الشيال انه كان فى هذه المدرسة مصححاً ومحرراً أكثر منه مترجماً ، ولا يعرف عنه انه ترجم فى الطب غير الرسالة الصغيرة التى ضمنها رحلته غير انه قام بمراجعة كتاب

(١) حلية الزمن ص ٢٥

(٢) التعليم فى عصر محمد على ص ٢٨٨

« التوضيح لألفاظ التشريح في الطب البيطري » الذي ترجمه يوسف فرعون وصححه الشيخ مصطفى حسن كساب ، وطبع في بولاق سنة ١٢٤٩ هـ^١ .

وبعد سنتين أمضاهما بمدرسة الطب ، انتقل الى مدرسة الطوبجية (المدفعية) بطرة لترجمة الهندسة والفنون الحربية ، ويبدو أن ميله لهذين العلمين هو الذي دعا الى نقله الى مدرسة الطوبجية ، وكان قد ترجم وهو في باريس فصولا من كتاب « لجندر » في الهندسة ورسالة في عمليات ضباط العسكرية . وبقي بها هي الأخرى عامين (من سنة ١٢٤٩ الى ١٣٥١ هـ — ١٨٣٣ — ١٨٣٥ م) ترجم خلالها رسالة في الهندسة مما كان يدرس في أكاديمية سان سير الحربية بفرنسا ، وكتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » .

ولما اجتاح وباء الطاعون القاهرة عام ١٢٥٠ هـ غادرها الى طهطا ، وفي خلال شهرين ترجم المجلد الأول من كتاب ملطبرون في الجغرافية وكان قد ترجم بعض صفحات منه في باريس .

ولم يكن رفاعة على وفاق مع « دي سكويرا » ناظر مدرسة الطوبجية ، فقد كان دي سكويرا اسبانيا يكره الفرنسيين . والثقافة الفرنسية ، فطلب رفاعة اعفاءه من العمل بها ، فنيط به الاشراف على مكتبة المدرسة التجهيزية وتعليم « تلامذة

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ٨٢ - ٨٣ ، ورفاعة راجع الطهطاوى

الجغرافية » بها ، وكان مقرها بالقصر العيني قبل أن تنقل اليه مدرسة الطب .

ولم يطل عهده بها اذ تقدم باقتراح انشاء مدرسة للترجمة لاعداد طبقة من المترجمين الضالعين فى اللغة العربية واللغات الأوروبية يقومون بترجمة ما تنتفع به الدولة من كتب الغرب وتستغنى البلاد بأبنائها عن الدخيل ^١ ، وليكونوا صلة بين الشرق والغرب ^٢ . ولقى الاقتراح قبولا من محمد على فعهد اليه باختيار تلاميذها « مناصفة بين القسمين البحرى والقبلى ممن يقرأ ويكتب بشرط أن يكون التلميذ صحيح البنية وسنه ما بين أربع عشرة سنة الى ثمانى عشرة » ^٣ .

وأوفد رفاعة مع طبيب لاختيارهم فاختر خمسين تلميذا من مكاتب الأقاليم وطلبة الأزهر ، يقول صالح مجدى ان أكثرهم من الصعيد « ثم ارتفع هذا العدد الى مائة وخمسين من جميع أقاليم مصر ومن مدنها المشهورة وبنادرها المعمورة » ^٤ .

وفى سنة ١٨٤١ رأت لجنة تنظيم المدارس أن يكون عدد تلاميذها ستين تلميذا ، فظلت على هذا العدد أو قريبا منه حتى

(١) المخطوط ج ١٣ ص ٥٤

(٢) بدوى - رفاعة ص ٤١

(٣) حركة الترجمة ص ٢٧

(٤) حلية الزمن ص ٣٧

نهاية عصر محمد على^١ ، وكان مقرها سراى الدفتردار بحى
الأزبكية حيث قام فندق شبرد القديم .

وعرفت المدرسة عندما أنشئت عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م)
بمدرسة المترجمين وغير اسمها بعد ذلك الى مدرسة الألسن .
ومدة الدراسة بها خمس سنوات قد تزداد الى ست .

واللغات التى تدرس بها هى العربية والفرنسية والتركية
والفارسية والايطالية والهندسة والجبر والتاريخ والجغرافية
و درست الانجليزية لفترة من الزمن ، الا أن أعظم العناية كان
باللغتين العربية والفرنسية ولم تلق التركية غير اهتمام
ضئيل^٢ .

وكانت مدرسة الألسن وسطا بين التجهيزية والخصوصية ،
فقد كان عليها الى جانب اعداد المترجمين أن تخدم المدارس
الخصوصية بتلاميذ يعرفون الفرنسية ، حتى اذا تخرجوا فيها
كانوا على دراية بما يترجمونه^٣ ، الا انها لم تكن الا باعداد
تلامذة المدارس الخصوصية ومضت فى تخريج طبقة من مترجمي
العلوم الانسانية والاجتماعية لم تكن لهم المقدرة على ترجمة
المصطلحات العلمية والرياضية ، فرؤى اعادة المدرسة التجهيزية
والحاقها بمدرسة الألسن لاعداد تلامذة للمدارس الخصوصية

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢٢٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢

(٣) بدوى : رفاعة ص ٤٢

قادرين على الترجمة في نواحي تخصصهم ، واختير للتدريس
بها خريجو مدرسة الألسن ^١ .

واتسعت مدرسة الألسن فوسعت عدا المدرسة التجهيزية
قلما للترجمة وقسما لدراسة الادارة الملكية العمومية (١٢٦٩ هـ
— ١٨٤٤ م) لاعداد الموظفين اللازمين للعمل بالادارة الحكومية ،
وقسما آخر لدراسة الادارة الزراعية الخصوصية بعد ذلك
بعامين ، وفي عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) أنشئ بها قسم لدراسة
الشريعة الاسلامية على مذهب أبى حنيفة النعماني لاعداد
القضاة ، وقسم للمحاسبة وآخر للادارة الافرنجية ^٢ . وكان بها
مخزن يمد المدارس بحاجتها من الأدوات والملابس ، ومتحف
للآثار ومكتبة افرنجية ^٣ .

وغدت مدرسة الألسن أشبه ما تكون بجامعة تضم كليات
للآداب والحقوق والتجارة ، وفيها أثر جهد المعلم الذي وقف
حياته على رعاية التعليم والثقافة في مصر طوال النصف الأوسط
من القرن التاسع عشر . فقام بإدارة المدرسة والاشراف على
الدراسة بها الى جانب عمله في التدريس ومراجعة الكتب التي
يقوم تلامذته بترجمتها ، يعاونه طائفة من خيرة الأجانب
والمصريين منهم الشيخ محمد الدمنهوري والشيخ على الفرغلي
الأنصاري من أقربائه ، والشيخ حسنين حريز الغمراوي

(١) عصر محمد على ص ٣٩٥

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥ ، ويدوى : رفاعة ص ٤٣ ، والتعليم في مصر

محمد على ص ٢٣٦

(٣) تاريخ التعليم في مصر ج ١ ص ٥٧

والشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، والشيخ عبد المنعم الجرجاوى وكلهم من أعلام عصره .

وكأنما وجد رفاعة فى مدرسة الألسن غاية نفسه فوهبها كل جهده مؤمنا بأن خير ما يقدمه لبلاده أن يعد لها جيلا من المترجمين والمعلمين يرودون بها آفاق النهضة التى جنى ثمارها بالغرب ، فكان يقوم الليل والنهار عليها ، فقد كان « دأبه » فى — مدرسة الألسن — كما يقول على مبارك — وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم وفى تأليفاته وتراجمه خصوصا ، أنه لا يقف فى ذلك اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأولى مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم فى الانشاءات نظما ونثرا أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف ، وكانت مجاميع الامتحانات لا تزهر الا به ^١ .

وأضيف اليه تفتيش عموم مكاتب الأقاليم وتفتيش مدارس الخاقاه وأبى زعبل ، كما كان يرأس كل عام لجنة امتحان تلاميذ

(١) المخطوط ج ١٣ ص ٥٤

مكاتب (المتديان) بالأقاليم ، فيركب النيل اليها ويمتحن تلاميذها ويختار المتفوقين منهم للمدرسة التجهيزية ، فعدا أبرز شخصية في ميدان التعليم في عصره ، وكأما أريد له أن يكون المعلم الأول في جيله .

وما من شك في أن الرجل كان مرهقا بالعمل رغم جلده ، الا انه لشغفه به كان لا ينسى عنه ولا يكل من السهر عليه ورعايته ، وحتى لا يتشتت جهده عين له ديوان المدارس فرنسيا يعاونه في ادارة المدرسة والتفتيش على الدروس والاشراف على المكتبة .

وكان التلاميذ يمرنون على ترجمة الكتب زيادة على دروسهم ، ويقوم الأساتذة بمراجعتها واصلاحها تحت اشرافه ثم تطبع ليقرأها المدرسون والتلاميذ ^١ .

وفي عام ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) احتفل بتخريج أول فوج بالمدرسة وكان من عشرين طالبا ووقف رفاعة يخطب ويقدمهم فيقول :

« بليت مدرسة الألسن كالغرة في وجه الأزبكية وامتازت »
« بالأعمال السنية ، تتبعت تلامذتها في العلوم البحث عن »
« الأصل والفرع ، وتبعث في الفهوم العقل والشرع . وهم »
« وان تميزوا بقواعد اللغات المرعية ، فقد تحيزوا الى فئة »
« العقائد الشرعية . وأظهروا من البراعة التامة ، ماهو متردد »
« في السنة الخاصة والعامة . وخرج منهم الى الخدم الأميرية »

(١) التعليم في مصر ص ٢٢٢

« نحو عشرين ، ظفروا لمهارتهم بالرتب البهية ، وظهرت ثمراتهم »
« في تعريب بعض كتب عظام ، تمت طبعا أو شارفت التمام » .
ومن تلك الخطبة :

« تظهر النتيجة كافية شافية ، مستكملة وافية ، حتى »
« يظهر للحاضرين ان هذه السنة التي هي ميعاد أول فرقة »
« أنجزنا فيها ما وعدنا به ، بعد بذل ما في الطاقة من المشقة ، »
« ولا يخفى أن أصل تصدينا لانشاء هذه المدرسة ، حب »
« إيصال النفع الى الوطن ، الذي حبه من الايمان ، وتقليل »
« التقرب في بلاد أوربا حيث لا يتيسر لكل انسان ، والنصح »
« في الخدمة ... فان خدمة مصر ، فريدة العصر ، دار هجرة »
« الفهم ، المبرزة لكل شهم ، من خير ما أفتى به اللبيب »
« وافتنن ، واعتنى به واقتناه ذخيرة للزمن ، بل هو فرض على »
« من كان من بنينا ، أو مستوطنا فيها ، جعلنا الله بارين ، »
« ومن أهل العقوق بريئين ... »^١ .

واكتملت رسالة مدرسة الألسن بانشاء قلم الترجمة عام
١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) ، أى بعد قيامها بست سنوات ، وكانت
النية متجهة الى انشائه منذ البداية ليجمع خريجها في هيئة
واحدة تقوم بترجمة الكتب المطلوبة تحت اشراف أساتذة
مختصين بشتى العلوم والفنون المترجمة^٢ .

وألحق القلم بها وصار جزءا من ادارتها يشرف عليه رفاعة

(١) بدوى : رفاعة ص ٤٥ ، ٤٦

(٢) المصدر السابق : ص ٤٧

كما يشرف على كل ملحقاتها الأخرى ، وتراجع أعماله كل عام
اللجنة المنعقدة لامتحان طلاب المدرسة لتثيب المجد وتنقص من
مرتب المقصر ، وكان ديوان المدارس يوافقها بالجديد من الكتب
التي تحتاج إليها المدارس الخصوصية ليرى رفاعة ما يترجم منها
فيعهد بها الى مترجمي القلم كل في فرعه .

وكان قلم الترجمة في بداية انشائه من أربعة أقسام : الأول
لترجمة الرياضيات ويرأسه « محمد ييومي افندى » ، والثاني
للعلوم الطبية والطبيعية ويرأسه « مصطفى واطى افندى » ،
والثالث للعلوم الاجتماعية ورئيسه « خليفة محمود افندى » ،
والرابع للترجمة التركية برئاسة « ميناس افندى » .

وفي عام ١٨٦٤ هـ (١٨٤٧ م) أعيد تنظيم قلم الترجمة الى
قسمين : أحدهما للترجمة العربية تحت اشراف رفاعة والآخر
للتركية باشراف « كياني بك » وقد عهد اليه بإدارة القسمين ،
وظل القلم قائماً حتى ألغى في أوائل حكم عباس ، كما ألغيت
مدرسة الألسن هي الأخرى في محرم سنة ١٢٦٦ هـ (نوفمبر
١٨٤٩ م) .

وانتهت فترة جليلة من حياة المعلم كان لها أبعد الأثر في
نهضة البلاد الفكرية ، واتصالها بالثقافة الغربية اتصالاً مشمراً
ينم عنه ما قام به أبناء هذه المدرسة من ترجمات نيفت على ألفى
كتاب^١ ، وما اضطلعوا به من أعمال في دوائر الحكومة نبهوا
فيها ونبه شأنهم بها .

(٢) تراجم مصرية وغربية ص ١٠٣

ولم تتصل حياة المعلم بمثل هذا العمل الجليل في ميدان التعليم من بعد ، فكان كل ما أسند اليه في هذا الميدان دون كفايته وجهده ، وإن قام به على خير ما عرف عنه من حمية ، أملا في أن تنبض تلك الأعمال بما كانت تنبض به مدرسة الألس من حيوية ونشاط أو أن تسير في الاتجاه الذي يحقق رسالته في تعليم المصريين .

وبالغاء مدرسة الألسن استهل المعلم الطور الجديد من حياته بمحنة أمضته وإن لم تعق جهده وحيويته ، إذ عين فاضلاً لمدرسة ابتدائية ينشئها في السودان « اقهاذا لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، فيمتازوا باكتساب العلوم والمعارف » بحجة أنه ملهم بأصول المدارس لينسجها كما ينبغي ، وينظمها نظاماً حسناً ^١ .

ويقال إن نية عباس لم تكن صادقة في هذا العمل وإنما قصد به إبعاد رفاعة عن مصر لما في كتابه « تخلص الأبريز » من آراء لا تعجب الحاكم المستبد كما يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي ^٢ ، وإن رده عزت عبد الكريم إلى ما كان من غيرة على مبارك لما أصاب رفاعة من توفيق وهو ممن قريبهم عباس إليه ، أو لما كان من معارضة بعد المتعصبين من المشايخ الذين عدوه متطفلاً على ميدانهم في دراسة الشريعة والفقه ^٣ . أما

(١) تاريخ التعليم في مصر ج ١ ص ١١٤

(٢) عصر محمد علي ص ٢٩٦

(٣) تاريخ التعليم في مصر ج ١ ص ٥٨

رفاعة فيقول: ان بعض الأمراء سعوا بينه وبين عباس بالوشاية.
ولكنه لم يذكر من هم هؤلاء الوشاة :

« وما خلت العزيز يريد ذلى

ولا يصغى لأخصام لداد »

« لديه سعوا باللسنة حداد

فكيف صغى لألسنة حداد»^١

وان كنا نعتقد أن عباسا حين أبعد رفاعة وصحبه الى الخرطوم لم يفكر في تخليص الأبريز .. أو يستمع لواش ، وانما كان يجرى جريه في هذا الأمر على ما كان عليه من سوء الظن بالنابيين ، وما جرى عليه من اغلاق المدارس وتعطيل الحركة العلمية ، ويبدو أن عباسا كان كارها لأهله وأسرته بدليل أنه حاول قتل عمته الأميرة « نازلى هانم » لولا هربها منه الى الآستانة . وما كان من عداوته لولى العهد سعيد واتهامه بالتآمر على حياته ولغيره من أمراء الأسرة ، ولعل كراهيته قد امتدت الى جده فكره رجال دولته ومن خدم منهم معه فقرب اليه « على مبارك » ولم يكن من رجال دولة محمد على وأبعد رفاعة وهو من أبرز الرجال الذين خدموا جده .

وقد بلغ رفاعة حينذاك من المكانة ما يحول دون اسناد عمل صغير اليه في مصر فاذا أسند اليه انشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم فان ذلك مما يمكن أن يعد نواة لنشر التعليم في

(١) مناجح الالباب : مطلب سفرى للسودان ونظمى قصيدة .

السودان وهو عمل جليل قمين بكبار الرجال ، مما لا يلقى معه
عباس لوما لارسال هذا الرجل الثابه الذى قاد الحركة التعليمية
فى مصر للنهوض بالتعليم فى السودان ، وفيه ما يحقق رغبته فى
ابعاد رفاعة وأمثاله .

وواجه المعلم المحنة بالشكوى والألم مستسلما الى قضاء
الله وقدره متمثلا بقول الشاعر :

فما أنا للأيام غير محارب
أصاحبها مستبشرا منهلا
فان كان حظى راحما كنت راحما
وان كان حظى أعزلا كنت أعزلا

ثم يفكر فى مآثره وخدماته فلا يعرف أنه قصر أو فترت
همته ، ولا يقبل على عمله هذا اقباله المعهود على كل عمل
تولاه ، ويتسلى عنه « بتعريب تليماك ^١ » ، حتى يرسل اليه
ديوان المدارس بعد سنتين لم يوافه خلالها بما عمل يسأله
« عما صار فى بحر هذه المدة من التعليمات ، وبيان ما اكتسبوه
التلامذة من العلوم ، وما مقدار عددهم ، وبيان درجات كن
منهم أيضا » ^٢ ، ورد رفاعة يقول : ان « التلامذة » هربوا الى
الجبال ، وان المعلمين قد « توفى الله ثلاثة منهم الى رحمته » ،
وأما المهمات فقد استولى عليها حكمدار السودان ووزعها على

(١) مقدمة مواقع الافلاك ص ٢

(٢) تاريخ التعليم فى مصر ص ١١٨

فرق الجيش ، وليست المدرسة الا « اسما بدون جسم » .
ويبعث عباس برسالة الى حكمدار الأقاليم السودانية يقول :
« وصل الى سمعنا وعلمنا في هذين اليومين أن المدرسة »
« المقرر تأسيسها وانشاؤها في بلدة الخرطوم لتعليم وتعلم »
« أولاد الناس وصبيانهم : أهمل فتحها الى الآن . وحيث ان »
« رفاعة بك الذى تعين ناظرا للمدرسة المذكورة وأستاذ »
« أول لها توجه الى بلدة الخرطوم ووصل اليها من مدة مديدة »
« فالمأمول أن تبادروا بفتح المدرسة على حسب ما تقتضيه »
« ارادتنا وتباشروا تعليم وتعلم الصبيان أولاد الأهالى بلا »
« تأخير وإهمال كما هو منظور فى درايتكم وقد حررنا لكم »
« لاجراء ايجابه »^١ .

وكتب ديوان المدارس الى رفاعة يطلب اليه الاهتمام
بالمدرسة وموافاته بأحوالها ، فلم يجد بدا من العمل وانتظمت
المدرسة « نحو تسعة شهور وتعلم فيها التلاميذ من أبناء المصريين
القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن
الخط »^٢ .

ومضت المدرسة فى طريقها ، وكان عدد المنتظمين واحدا
وثلاثين تلميذا ، ضم اليهم حكمدار السودان سبعة آخرين ،
وخص رفاعة من توسم نجابتهم « بقراءة القرآن وحفظه ،
وأعراب الاجرومية وحفظ مفردات وجمل تركية ، وخط الثلث

(١) تقويم النيل وعصر عباس وسعيد ص .

(٢) مناهج الالباب : مطلب سفرى للسودان ونظمى قصيدة .

والحساب ليكونوا قريبا مقدمين على أقرانهم وقلصوات للمدرسة»^١.

ولم يعد رفاعة الى مصر الا بعد وفاة عباس وتولية سعيد اذ أصدر أمره بالغاء المدرسة ولما يمض على توليته سبعة أيام ، وفى القاهرة سعى الى صديقه « ابراهيم أدهم بك » وكان سعيد قد عهد اليه بتفتيش عموم المهمات والمدارس ، فعملا سويا فى مشروع انشاء « مكاتب الملة » لنشر التعليم بين سواد الشعب ، واقترح أدهم تعيين رفاعة ناظراً عاما على هذه المكاتب ، ولكن المشروع لم يحظ بالتفات سعيد وبقي رفاعة بلا عمل ، فالتبس أن يقيد بديوان المحافظة أو أى عمل آخر ليقوم بترجمة الكتب النافعة ، فحين مترجما بديوان المحافظة تحت رئاسة أدهم وكان قد عين محافظا للقاهرة بعد الغاء ديوان المدارس . ولم يمض على ذلك شهر حتى عين « ناظراً ثانيا » للمدرسة الحربية بالصلبية « تحت رئاسة سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال الجهادية »^٢. ثم رأى سعيد انشاء مدرسة حربية لاعداد ضباط أركان حرب للجيش وعهد بذلك الى سليمان باشا الفرنساوى فقام بانشائها بالقلعة عام ١٢٧٧ هـ (١٨٥٦ م) ، وبعد قليل التمس حالته على التقاعد فعين رفاعة ناظرا لها .

وبدأت حياة المعلم من جديد على النسق الذى يهوى ويرضى آماله ومراميه ، فأراد أن يحيى فى مدرسة أركان الحرب

(١) تاريخ التعليم فى مصر ص ١٢٢

(٢) حلية الزمن ص ٣٩

مدرسة الألسن القديمة فتكون مركزاً للثقافة والاشعاع الفكرى
فى مصر ، فعرض على الطلاب دراسة اللغة العربية وترك لهم
حرية اختيار احدى اللغتين الشرقيتين الفارسية أو التركية ،
واحدى اللغات الأوروبية الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ^١ ،
ولم يلبث أن أنشأ بها قسماً للمحاسبة وقلماً للترجمة عهد
برئاسته الى تلميذ نابه من تلاميذه القدامى فى مدرسة الألسن
هو « السيد صالح مجدى » كاتب سيرته ومناقبه فيما بعد ،
وكان من الضالعين فى ترجمة كتب الرياضيات والفنون الحربية .
ولم يكتف رفاة بالترجمة بل عمد الى احياء التراث القديم
« لرغبته — كما يقول على مبارك — فى نشر العلوم وسعة
دائرتها وحبه عموم النفع بها » ^٢ « فسعى حتى صدر « الأمر
بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة عم الانتفاع بها فى
الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ،
وخزانه الأدب ، والمقامات الحريية ، وغير ذلك من الكتب التى
كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت » ^٣ .

وعهد اليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة
وتفتيش مصلحة الأبنية ، وأصبح رفاة للمرة الثانية مهيماً
على شئون التعليم فى مصر . ولكنه واجه البطالة من جديد ،
ففى عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) ألغيت المدرسة بعد خمس سنوات
من انشائها وبعد أن ظهرت ثمرتها « ونجاة تلامذتها واستفادتهم

(١) الشبال : رفاة ص ٤٤
(٢ ، ٣) الخطط ج ١٣ ص ٥٥

استفادة جيدة في أقرب وقت « كما يقول على مبارك . وبقي متعطلاً قرابة سنتين ، حتى تولى اسماعيل فأعاد ديوان المدارس ، وعين رفاعة عضواً في « قومسيون الديوان » للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة ^١ . و انتهت مهمته بافتتاح تلك المدارس ، كما عين عضواً في القومسيون المؤلف للنظر في لائحة على مبارك لتنظيم المكاتب الأهلية ، وعرفت باللائحة الرجبية لصدورها في رجب سنة ١٢٨٤ هـ ، و انتهت مهمته بانتهاء الغرض الذي شكل من أجله ، إلا أن على مبارك رأى وجود قومسيون دائم بديوان المدارس للإشراف على المكاتب والنظر في شئونها وأهمها تقارير المفتشين واقتراحاتهم ^٢ » فكان يعهد إلى رفاعة رئاسة مجلس المكاتب الأهلية « المقتضى انعقاده للنظر في حال المدارس والمكاتب الأهلية وادخالهم تحت رابطة حسنة كما مرغوب الخديو » ، وطلب إليه أن يحضر في كل يوم إلى مقر عمله بالديوان ^٣ ، كما كان يشترك في بعض اللجان للنظر فيما ينشأ من مدارس ويشرف على تدريس اللغة العربية فيختار لها المدرسين ويقوم بتوجيههم إلى أحدث طرق التدريس ويقرر الكتب اللازمة لتدريسها في كل مدرسة ، فضلاً عن رئاسته لكثير من لجان امتحانات المدارس الأجنبية والمصرية ، وكان الامتحان الذي عقد بمدرسة أسيوط في رجب سنة ١٢٨٨

(١) تاريخ التعليم في مصر : عصر اسماعيل ص ١٢١

(٢) بدوى : رفاعة ص ٦٢

(٣) تاريخ التعليم في مصر : عصر اسماعيل ص ١٢٤

وآخر ما أشرف عليه منها . وكانت خطبته فيها آخر خطبة له ^١ .
وكان أبرز ما عهد اليه في عهد اسماعيل نظارته لقلم الترجمة
الذى أنشئ سنة ١٨٦٣ لترجمة القوانين الفرنسية ، ولم يكن
هناك من المترجمين غير تلاميذه في مدرسة الألسن القديمة فاختار
منهم عبد الله السيد ، وصالح مجدى ، ومحمد قدرى ، ومحمد
لاظ ، وعبد الله أبو السعود ^٢ وهم جميعا من المشهود لهم في
الترجمة ومن أنبغ خريجي المدرسة ، ولهم فضل ماثور في
الحركة الفكرية التى ازدهرت في عصر اسماعيل .

واحتل القلم غرفة في مبنى ديوان المدارس ، وقام بترجمة
القانون الفرنسى تحت اشراف رفاعه ، ووسعت الترجمة مجلدات
عديدة طبعت في مطبعة بولاق .

ولم يلق القلم اهتماما من المسئولين رغم كثرة أعبائه ، فالى
ترجمة القانون الفرنسى كان يقوم بترجمة الدستور العثمانى
والجريدة العسكرية وحسابات البعثة المصرية بباريس ، فضلا
عن ترجمة كتاب رفاعه في تاريخ مصر الى اللغة التركية ، فلما
طلب اليه ترجمة الأجزاء الباقية من جغرافية ملطبرون ، اعتذر
رفاعة — رغم حبه لهذا العمل — بأن القلم لم يبق به غير ثلاثة
من المترجمين هم عبد الله أبو السعود ، وصالح مجدى ، وحسن
الجبيلى ^٣ ؟ ولعله كان يأمل أن تقوم الى جانب القلم المدرسة

(١) بدوى : رفاعه ص ٦٤

(٢) الشيال : رفاعه ص ٤٦

(٣) المصدر السابق ص ٤٧

التي تمده بالترجمين ، ولكن مدرسة الألسن الجديدة التي أنشئت عام ١٨٦٨ وعرفت باسم مدرسة الادارة والألسن كانت غير مدرسة الألسن التقليدية ، فاقترنت مهمتها على دراسة القوانين واعداد القضاة ، فلما بدت الحاجة الى المترجمين وأنشئت لهذا الغرض « مدرسة الألسن » سنة ١٨٧٨ ، كانت قد مضت خمس سنوات على وفاة رفاعة .

ولكن هل وقت حياة المعلم على المدارس ووظائف التدريس ؟ اذن لمضى كما يمضى غيره معلماً من المعلمين النابهين أو موظفاً كبيراً من موظفي المعارف فحسب ، ولكن الرجل كان غير ذلك فقد امتد بفكره وآرائه الى آفاق أرحب هي التي خللت ذكره وان بقيت له صفة المعلم في كل حال .

وبقى له مع ذلك جانب من عمله الحكومي أثر على يديه ما أثرت أعماله في وظائف التعليم والترجمة ، وهو عمله في « الوقائع المصرية » ، وفي « روضة المدارس » أو عمله في الصحافة ان شئنا أن نسميه بلغة العصر ، فلم تكن الوقائع وروضة المدارس غير جريدتين حكوميتين يغلب عليهما الطابع الرسمي وان خاضتا في كثير من المسائل العامة التي لا تعلق بال الحكومة .

وقد صدرت الوقائع المصرية في جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ (ديسمبر ١٨٢٨ م) بعدما أنشئ قلم الوقائع في رجب سنة ١٢٤٤ هـ لطبع ونشر « خلاصة خصوصية عن الوقائع التي

تحصل بالجهات «^١ ومن الطبيعي ألا تنشر الوقائع ما ينقص من هبة الدولة ، فلما نشرت خبرا « عن حادث بين بكباشى الأورطة بدمياط وبين البولك أمين «^٢ لم يرض محمد على عن نشر الخبر « وأرسل الى ناظر الجهادية يأخذ عليه نشر أخبار لم يكن ليحسن نشرها بجريدة الوقائع ، ويطلب معاقبة من عملوا على نشره «^٣ . كما غضب « سر العسكر ابراهيم باشا » من خبر نشرته عن « عدم صرف أحمذية للأولاد الموجودين بحديقة شبرا »^٤ فقد أنشأ محمد على الوقائع لتنوه بأفضاله وتذكر مآثره . وتعرف المصريين — كما قيل — على « الحال والزمان » وتلفت نظرهم الى « الأمور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى أنواع الصناعات التى باستعمالها يأتى الرخاء والتيسير »^٥ .

فلم تكن الوقائع اذن غير جريدة رسمية ، وما كان لرفاعة أن يتعدى هذا النطاق المرسوم لها ، وهو ما لم يعده فى كل عمل تولاه طوال حياته ، ولكن العمل كان يتحول على يديه الى شىء مثير دون أن يتجاوز الحدود المرسومة لحرية الرأى ، كما كان فى « تخلص الابريز » ، فنراه يشيد بأفضال الوالى ومآثر ولى النعم ، ولا يرى فى هذا ما يحول بينه وبين التعرض لموضوعات والتنويه باتجاهات وآراء قد لا ترضى الحاكم

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٥٨

(٣ ، ٤) المصدر السابق ص ٥٨

(٥) المصدر السابق ص ٦٢

المستبد ، فاذا تحدث عن السياسة والحكم في فرنسا فان الدستور الفرنسى ليس مما فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم « ولكنه من وحي عقولهم التى « حكمت بأن العدل والانصاف من أسباب تعيير الممالك »^١ ومعناه أن حكم الشريعة أوفى وأعدل ، وهو ما يفصح عنه بعد ذلك بعشرين عاما حين تولى تحرير الوقائع المصرية فيقول فى الرد على اتهام الغربيين لملوك الشرق وأمرائه بالاستبداد « ان حاكم الشرق المسلم يستمد حكمه من ارادة الله وشريعته وهى خير ضمان للعدل واستقامة الأمور فى البلاد الاسلامية ومنها مصر » فاذا ظن الأجانب بملوك الشرق وأمرائه استبدادا فانه « ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الاسلام لا وجه له فى الشرع ، وقل أن يقدم ملك اسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله »^٢.

ويبدو أن رفاة حين يسوق تلك الحقائق والآراء عن السياسة التى يسميها « البوليتيكا » والسياسيين وأنواع الحكم من « ديمقراطية وأرستقراطية ومونرخية^٣ ومختلطة أى مركبة^٤ » كان يتوقى غضب الحاكم بمدحه والاشادة بعمله وماثره على العمران والتقدم ، مما يجرى ذكره على لسان الناس كما جرى ذكر من قبله ، فقد اشتهر الوليد بالضياع والمصانع فغدا ذكر

(١) تخلص الابريز : الفصل الثالث من المقالة الثانية .

(٢) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٨

(٣) الوقائع المصرية عدد ٦٢٢ غرة ربيع آخر ١٢٥٨ هـ ، وتاريخ الوقائع

المصرية ص ٩٦

(٤) ترجمة رفاة لكلمة Monarchie

ثرائه ونشاطه الصناعى على شفاء الناس الذين أخذوا يتساءلون عن «الدنيا والمصانع والصنایع وشق الأنهار وغرس الأشجار» فلما ولى عمر بن عبد العزيز « كان الناس يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وكم وردك كل ليلة ؟ وكم تصوم من الشهر ؟ » ، فاذا كان عبد الملك وكان « صاحب طعام ونكاح ، كان الناس يتساءلون ويتحدثون بالأطعمة اللذيذة ، والثياب الرفیعة ، ويتغالون فى المناكح والسرارى »^١ . وكأنه يريد أن يقول ان الناس على دين ملوكهم ، « وآمال الموالى فى مصر متعلقة بالمعمار »^٢ فليس اذن من حديث للناس فى مصر الا العمران والاشادة بآثر الوالى ، وأفضاله على البلاد .

وكان رفاعة يكتفى بالعرض دون التعليق وخاصة فيما يتصل بالسياسة فاذا تحدث عن الدستور الفرنسى مثلا أو أنظمة الحكم التى عرفها فى أوربا فانه يتحدث عنها بالنسبة للأوربيين ولا يذكر شيئا عن ملاءمتها للشرق مما خاص فيه بعد ذلك أحمد لطفى السيد محبذا ومؤيدا له فى مصر . ولعل رفاعة كان يترك للناس أن يدركوا ما لم يقله صراحة .

كانت تلك المقالة التى ساقها رفاعة فى الوقائع المصرية حين أشرف على تحريرها تطورا خطيرا فى موضوعاتها فقد انتقلت فجأة من « توافه الأخبار والحوادث والافتتاحيات الثقيلة

(١) المصدران السابقان .

(٢) تخلص الأبريز : الفصل السابق .

المحشوة مديحا وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر الى موضوعات
رئيسية لها خطرهما لا فى الشرق وحده ، بل فى أوربا فى ذلك
الوقت « ١ .

وهكذا امتد أثر الرجل الى ناحية خطيرة من نواحي الفكر ،
لعله ان تحدث بها الى تلاميذ مدرسة الألسن ، فانه فى الوقائع
يتوجه بالحديث الى رأى العام القارىء فى مصر .

وأخذت الوقائع لونا جديدا على يد رفاعة فأخذت اللغة
العربية مكان الصدارة الى اليمين محل اللغة التركية وتضمنت
أعدادها « سطوراً لنشر ما له علاقة بالأدب ، على أنها لم تنشر
جديداً على ما قاله القدماء بل أعادت اذاعة ما قالوه فى الماضى »
الى بعض قصائد شعرية « هى أول ما قيل من شعر فى
الوقائع » ٢ ، وهو ما نلاحظه من اتجاهات رفاعة فى كتابة تخلص
الابريز ، فلم تكن تفوته مناسبة الا ويرد فيها بشيء من شعره أو
بما يؤثر من شعر السابقين .

ولم تمض الوقائع طويلا على هذه الصورة التى أرادها
رفاعة رغم قيامه عليها ، فبعد عام ١٢٥٨ هـ عادت اللغة العربية
الى اليسار واحتلت التركية مكانها الأول من التكريم
والاعتبار ٣ ، وانصرفت عما بدأت من ألوان الشعر والأدب الى
نشر الأخبار الرسمية والمحلية فقد أمر محمد على ألا يكتب فيها

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٦

(٢) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٩

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠

« شىء يختص بالسياسة بل يجب انحصارها فى أخبار ما يحفر من الترع وما ينشأ من الجسور والقناطر وفى أنباء العزل والنصب وكذلك أنباء السفن التى من الخارج » ويرد ابراهيم عبده حرمان الوقائع من الموضوعات السياسية الى نتائج « الأزمة المصرية سنة ١٨٤٠ التى انتهت بتحديد استقلال مصر ، وحرمانها من مكانها الدولى المعروف لها من قبل ، فأصبح من المتعذر على الحكومة المصرية أن تجيز لصحيفتها نشر أخبار أوربا السياسية والتعليق عليها بما قد يسىء الى أى دولة من دولها وان أباحت نشر أخبار تلك الأمم مجردة لا رأى لها فيها »^١ وان كنا نرد ذلك الى ارادة الوالى الذى لا يرضى عن نشر تلك الموضوعات التى تنبه الجماهير الى استبداد الحاكم^٢ . ولا نلحظ لرفاعة بعد ذلك رأيا أو جهدا فى الوقائع ينم عن اتجاهاته وأفكاره التى بدأ ينشرها فى تلك الفترة التى لم « يزد تحريره فيها على عدة أعداد من أعدادها الكثار^٣ حتى أقصى عنها فى أوائل حكم عباس .

ويبقى رفاعة بعيدا عن الصحافة والصحف حتى أنشأ اسماعيل فيما أنشأه من صحف ، مجلة أدبية دعاها « روضة المدارس » للنهضة باللغة العربية واحياء الأدب العربى ونشر

(١) المصدر السابق ص ١٠١ نقلا عن محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢ دفتر

رقم ٢٠٩٩ ص ١٤١ مدارس تركى فى ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٦٠

(٢) المصدر السابق ص ١٠١

(٣) أعلام الصحافة العربية ص ٢٣

المعارف الحديثة ١ . ورأى على مبارك مدير ديوان المدارس أن يعهد بها الى رفاعه فان « رفاعه بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار اليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ، ناسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر عليها فيتلقاه محب المعارف باليمين » ٢ . وتولى ابنه « على بك فهمي رفاعه » مدرس الانشاء بمدرسة الادارة والألسن رياسته تحريرها ، واتخذت المجلة شعارا لها يتين من الشعر هما :

تعلم العلم واقراً تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى : «خذ الكتاب بقوة»

وصدر أول أعدادها يوم السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) مفتتحاً بمقال رئيس التحرير « على فهمي رفاعه » عن أهدافها ومراميها ورسالتها فان « جل مرغوب ديوان المدارس المصرية ، — تعميم العلوم وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون واكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا المشرع الحسن ، وإبراز المسائل المعينة على جلب قضاها بدون مشقة ، وإحراز الوسائل المسهلة لجذب أطرافها ولو بكثير تفقة ... فقد أبرز في هذه الأيام السعيدة ، لحرصه دائماً على إبداء كل طريفة من المحاسن وتليدة ... صحيفة تعنون باسم روضة المدارس على هيئة

(١) المصدر السابق ص ٢٢

(٢) روضة المدارس عدد ٢

مجموعة ، يتقيد في جريدتها أى مادة علمية من المواد النفائس ، بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذا لمن يعانيتها من قريب الفهم والبعيد ... فان المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة ... وعلى الخصوص بين أبناء المدارس المستظلين بظلالها الوارفة ، المتمتعين في ساحتها بأجزل نعمة ، وأجزل عارفة ، فانها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم تقعا ، وأعظم وقعا ، بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة ، وذكر جوامع الكلم الحكيمة الرائقة ، ورقائق الفضلاء العصريين ، ورقائق العلماء الماضين ، حتى تتسع دائرة عقولهم ومنقولهم ، وتمتلىء من زواهر الفنون ، وجواهر العلوم حقبة عقولهم ، مع ما يزيد في رغباتهم ، ويبعثهم على ازدياد اهتماماتهم ، اذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحقة ، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفتدة والألسنة ، سيقيد بهذه الصحيفة ، وتلمسه أيدي أفاضل شريفة ، ويذكر فيها اسمه وحليته ورسمه ، فتزداد حينئذ رغبته ، وتقوى على عظام الأمور همته ، وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية ، مما يقع عليه الاختيار ، ولا ضرر فيه ولا ضرار ، فليس من وظائفها تهديد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والادارية ... ومما يشهر فضل هذه الصحيفة ويعلى قدرها ... أن سعادة مدير المدارس جعلها ملحوظة بنظر نظارته ... وقد تكفل لها

عدة من العلماء الأساتذة والفضلاء الجهابذة ، بامدادها برسائل مؤلفة جديدة ، ونبد مصنفه مفيدة ، من فنون وعلوم مختلفة ، ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة ، وبعض تراجم من لغات أجنبية ، واخراجها في قالب سهل من أساليب العربية ، وصار كل منهم يرسم عضو تأسيسى .

ويعضى رئيس التحرير فيذكر بعض هؤلاء الأعضاء ؛ فمنهم « عبد الله بك فكرى » الذى أحيل عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش فاظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، واسماعيل الفلكى بك وعهد اليه بالفلك ، ومحمد قدرى افندى وخص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد افندى ندا وعهد اليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ وطلب اليه امداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنكات ، وأحيل على مباشر تحريرها الكلام عن محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاؤها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على خوجات المدارس الملكية ، وما يرد منهم فى القابل يذكر باسم صاحبه ، حتى لا يضيع عمل عامل ^١ .

فروضة المدارس مجلة أنشئت لنشر الثقافة العامة بين أبناء الوطن « وتسويتهم فى الورود » اليها ، وليس لها أن تخوض فى السياسة أو فى أعمال الحكومة ، حشد لها ديوان المدارس أبرز علماء العصر ومفكره كل فى ميدانه وفى مجال تخصصه ،

وما منهم الا وهو صاحب فضل على النهضة العلمية والفكرية في البلاد ، فعبد الله فكرى هو الأديب الشاعر عبد الله باشا فكرى وزير المعارف في وزارة محمود سامى البارودى التى عارضت الخديو توفيق واستقالت احتجاجا على مسلكه فى مايو ١٨٨٢^١ . واسماعيل الفلكى هو اسماعيل باشا مصطفى الفلكى العالم الرياضى والفلكى تلميذ محمود باشا الفلكى وناظر الرصدخانه ومدرسة المهندسخانة فى عصر اسماعيل^٢ ، ومحمد افندى قدرى ، هو المشرع محمد باشا قدرى صاحب المؤلفات التى لا يستغنى عنها قانونى حتى اليوم^٣ . ووزير الحقانية فى وزارة شريف الدستورية سنة ١٨٨١ ووزير المعارف فى وزارته الرابعة التى استقالت احتجاجا على اخلاء السودان ، وصاحب مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية الجديدة ، وأحمد افندى ندا هو أحمد بك ندا من تلاميذ البعثة الخامسة فى عصر محمد على لدراسة العلوم الكيماوية وعين بعد عودته أستاذا فى مدرسة الطب والمهندسخانة وأركان الحرب ، ومن مترجماته « حسن البراعة فى علم الزراعة » عن الفرنسية « ليفجرى بك » ومن مؤلفاته « حسن الصناعة فى علم الزراعة » و « الآيات البيئات فى علم النبات » و « الحجج البيئات فى علم الحيوان » و « الأقوال المرضية فى علم الطبقات الأرضية »^٤ .

(١) عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٧٥

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥

(٣) تراجم مصرية وعربية : ترجمة محمد قدرى باشا .

(٤) عصر محمد على ص ٤٣٤

وضمت المجلة اليها بعد صدورها السيد صالح مجدى وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونة النواوى الحنفى مدرس علمى الفقه والكلام بمدرسة الادارة والألسن ، وأسهم فى تحريرها آخرون من العلماء والأدباء منهم محمود باشا الفلكى ، والشيخ حسين المرصفى ، والطبيب المشهور الدكتور محمد بك بدر ، والشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ، ويصفه على مبارك « بالخبر الهام وفخر العلماء الأعلام ، الامام الأريب ، واللوزعى الأديب ، الشاعر النائر ، الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبد الهادى نجا » وعبد الله أبو السعود محرر جريدة وادى النيل ، والشيخ حمزة فتح الله اللغوى المعروف . وغدت بذلك مجمعا للفكر والعلم والأدب والفن طوال ثمانى سنوات صدرت خلالها ، لم يقض رفاعة منها غير ثلاث سنوات وشهرين .

وأفسحت المجلة من صفحاتها لطلاب المدارس ، وبرز من بينهم « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة » ناشرا لأشعار نادت عن موهبة شعرية استوت على الزمن باقة عبقة فى روضة الشعر الحديث ومما نشره فيها قصيدة مطلعها :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر
وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
• شعرك أم ليل تراخى سدوله
وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى استهلالها :

لا والهوى العذرى والوجد

عذل عذولى فيك لا يجدى

انى مع الصد وطول الجفا

باق على الميثاق والعهد

ودرجت المجلة على أن تلحق بأعدادها كتباً ألفت لها ١ .

على أجزاء مع كل عدد جزء من أجزاءه ، فنشر كتاب « حقائق

الأخبار فى أوصاف البحار » لعلى مبارك ، و « آثار الأفكار

ومنشور الأزهار » لعبد الله فكرى ، و « الصحة التامة والمنحة

العامة » للدكتور محمد بدر ، و « المباحث البيئات فيما يتعلق

بالنبات » و « بهجة الطالب فى علم الكواكب » . وألحق رفاعة

بالعدد السادس من السنة الأولى رسالته الوجيزة المسماة

« القول السديد فى الاجتهاد والتقليد » .

وكان رفاعة قد نيف على السبعين حين ولى أمور روضة

المدارس ، ولكن شعله فكره الوقاد لم تخب على الزمن ، ولم

ينل من عزيمته وهن الشيخوخة فكان يطالع قراء الروضة بين

حين وآخر بنفثات قلمه على طريقته من الكتابة الموسوعية

والفكرة الموجهة ، فنراه يترجم « لكسرى أنوشروان » على

عدة أعداد ، كما يكتب فى تاريخ بركة الأذربكية منذ حفرها

« المعز الأتابكى أذربك بن الظاهرى » سنة ٨٨٠ هـ ، الذى

(١) بدوى : رفاعة ص ٧٤

دعيت باسمه وكيف تحولت الى بستان عظيم ، ويروي كعاداته
ما قيل فيها من شعر ، ومن مقالاته الموجهة مقال عنوانه « بقاء
حسن الذكر باستخدام الفكر » وآخر اسمه « احسان السيرة
باخلاص السريرة » . ولكن السنة الثانية تمضى دون أن يكتب
شيئا ، فاذا كانت السنة الثالثة ينشر على أعداد متتابعة كتابه
« نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز » وكان آخر ما ألف ،
واستمرت المجلة في نشره بعد وفاته . أما آخر مقال نشر له فقد
كتبه على لسان المدارس الملكية والمكاتب الأهلية بمناسبة توزيع
الجوائز في آخر ذى القعدة سنة ١٢٨٩ هـ بالعدد الثاني
والعشرين من السنة الثالثة .

واستمرت روضة المدارس تصدر بعد وفاته « تحت ادارة
فاخر قلم الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة
بك » وهى العبارة التى تصدرت غلاف العدد الحادى والعشرين
للسنة الرابعة ١ . وكأما عز على الناس أن تصدر المجلة دون
ذكر اسمه .

في ميدان الفكر

عاش رفاعة طوال حياته يجوب آفاق الفكر محدد الغاية واضح الهدف مع ميل عارم أن يصدر بفكره الى الناس ، فغاياته أن يعلم الناس ما تعلم وأن يهديهم بفكره الى الرشد من أمرهم منطلقا بهم من قيود الجمود التي رانت على عقولهم طويلا . عساهم يتحررون من وقر الماضي الذي يقعد بهم عن التقدم والنهوض .

فلما كان طالبا بالأزهر كان تواقا الى أن يفيد الناس مما تعلم فنراه حين يؤوب الى بلده طهطا يعكف على تعليم الناس ما تعلم . فيقرأ عليهم بمسجد « جده سيدى أبى القاسم دروسا حافلة في أوتار العشر الأواخر » من شهر رمضان ، كما يدرس في « الجامع اليوسفى » بيندر ملوى « صغرى الصغرى للسنوسى »^١ .

ولعل ميله للكتابة كان منبعثا من ميله الى التعليم ، فأعظم غاياته — كما نعتقد — أن يعلم الناس ويهدي اليهم جديدا من المعرفة وجديدا من الفكر سواء عن طريق الكتابة أو الإلقاء . فاذا كان قد حفى بإلقاء دروسه على الناس وهو طالب بالأزهر

(١) حطبة الزمزم ص ٢٢ ، ٢٥

فقد كتب أيضا « أرجوزة في التوحيد بعد مدة يسيرة من
'تنظيمه بالأزهر' »^١ .

وقد يفسر لنا هذا ما اتسمت به كتاباته من طابع موسوعي ،
فقد كانت غايته أن يهدي أبناء بلده من ضروب المعرفة
ما ينفعهم ، وأن يحفزهم إلى طلب العلم والتعلم مما كان سببا
في سبق الغرب وتفوقه . كما يفسر لنا اقباله على الترجمة ،
وتعدد مناهج فكره وألوان كتاباته ، وبعده إلى حد ما عن
التخصص الذي يقف بالكاتب على نهج معين أو فرع من فروع
العلم ، ويفسر بالتالي ما أدخله على مدرسة الألسن من مناهج
ودراسات بعيدة عن فن الترجمة ، ودأبه على التأليف
ومشاربته على الكتابة ، فلا نعرف عنه أنه أضاع وقتا
في غير الكتابة أو التأليف أو تعليم أبنائه من الطلاب ،
فكانت دروسه تمتد ساعات ، ولا يقف دونها ليل أو
نهار . كما كان ديدنه في مدرسة الألسن ، لا يحول بينه وبين
عمله ودراساته جهد أو إرهاق ، وقد عرفنا ما أصاب عينه
اليسرى من كلال وضعف لم يستمع فيه إلى نصيحة الطبيب
خوف « تعويق تقدمه » ونوه به أستاذه شواليه دليلا على
غيرته ودأبه على التحصيل^٢ . وكأما كان يسابق الزمن أو يخشى
أن تفوته الأيام دون أن يفى بغايته أو يؤدي رسالته . فالمعروف
أنه ترجم مجلدا من جغرافية ملطبرون في ستين يوما^٣ ، وحين

(١) المصدر السابق ص ٢٥

(٢) تخلص الأبريز : الفصل السادس من المقالة الرابعة .

(٣) حلية الزمن ص ٣٦

ألمت به محنة النزوح الى السودان في عمل أدنى ، لم تفتر همته
« فآلف وترجم عدة كتب من ضمنها كتاب « تلاماك » الذي
طبع في بيروت »^١ .

وظل الرجل طوال حياته عاكفا على ما وهب نفسه له وبقي
الى آخر يوم في عمره يطالع الناس بشار فكره ، وكانت نهاية
المطاف مع كتابه « نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز » وقد
أخذ ينشره مسلسلا في روضة المدارس ومات قبل أن يتم طبعه
فقام ولده به وأضاف اليه جدولا بغزوات الرسول أراد رفاعة
أن يختم به كتابه فقام به ابنه « على بك فهمي » .

وقد عرفنا المعلم وهو يرود بأبنائه آفاقا من المعرفة والمثل
العليا ، ويفرس فيهم الايمان بالعلم والتعلم خير هذا البلد
ونهضته ، وعلينا أن نجوب معه آفاق فكره فيما ترجم وآلف
من كتب لتلاميذ المدارس وللناس عامة . ولا نحب أن نقف
طويلا عند كتبه التي ترجمها لتلاميذ المدارس فانها لم تكن غاية
جهده بقدر ما كانت لتعليم الناس وتثقيفهم بألوان من المعرفة
الحديثة ، أو تتأني أمام مؤلفاته الدراسية وان نمت عن نهج
جديد من التفكير الا أنها لا تصور آفاق الرجل ومطارح فكره
ومراميه .

والسمة الغالبة على مترجماته ومؤلفاته هي السمة
الموسوعية ، فنراه يتنقل في يسر وسهولة بين القديم والحديث ،
وبين العلم والأدب ، ويجوب آفاق العلوم الانسانية والاجتماعية

(١) المصدر السابق ص ٢٨

في شغف وأصالة تتم عن سعة اطلاعه وكثرة معارفه . ويبدو أنه كان قراء نهما تسعفه ذاكرة قوية تتداعى معها معارفه حرة طليقة في استطراد لا يبعده عن جوهر الموضوع وغايته ، حافلة باستشهادات عديدة من الشعر وأحداث التاريخ في رصانة تبتعد به عن التطرف أو محاولة النكتة الرائقة .

ولئن كانت الترجمة حرفته التي أعد لها وكلف بها وأقبل عليها واجتاز فيها امتحانا تقدم اليه باثني عشر مترجماً من الفرنسية الى العربية ، فقد كان التأليف هوايته ومناط فكره وآرائه ودراساته ، ولئن بدأ بالتأليف منذ كان طالبا بالأزهر وأقبل عليه بكتابة « تخليص الأبريز » فقد استوعبت الترجمة سنواته الأولى ، فما أن عاد الى مصر وعين مترجماً بمدرسة الطب حتى ترجم — كما يقال — رسالة طبية لم يعثر عليها ، ولعلها بعض ما كان يلقي من دروس كلف بترجمتها الى العربية ، فمؤلف حلية الزمن يقول انه لم يقف عليها وان سمع « من بعض جلسائه بذكرها »^١ ، ويرجح الشيال انه كان في المدرسة مصححاً ومحرراً أكثر منه مترجماً ، وانه لم يترجم في الطب غير الرسالة الصغيرة التي ضمنها رحلته^٢ . كما ترجم كتباً أخرى أشرنا اليها في الفصل السابق . أما ما لم نشر اليه منها فترجمة لكتاب دعاه « جغرافية صغيرة » طبع سنة ١٢٥٠ هـ ، وآخر سماه جغرافية عمومي في كيفية الأرض « طبع سنة ١٢٥٤ هـ . »

(١) حلية الزمن ص ٣٥

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ١٢٢ -- ١٢٣

وكتاباً يقال ان اسمه « تاريخ المصريين القدماء » طبع في نفس السنة ، أغلب الظن أنه كتاب « بداية القدماء ونهاية الحكماء » الذى قام بترجمته بعض طلاب مدرسة الألسن تحت اشرافه ، فكثيراً ما كان ينسب اليه ترجمة ما راجعه أو أشرف على ترجمته .

وفى السودان شغل بترجمة مغامرات « تليماك »^١ التى دعاها « مواقع الأفلاك فى أخبار تليماك » وهو كتاب لقسيس فرنسى يدعى « فنلون » كان مريباً « لدوق دى بورجونى » حفيد لويس الرابع عشر ، استقاه من الميثولوجيا اليونانية ليقراه الأمير الشاب . فتمو فضائله ويقوم اعوجاجه .

ويرى السيد صالح مجدى أن رفاعة « قد تصرف فيه بالزيادة والنقص وأفرغه فى قالب العريية المنيف ، والتزم فيه السجع ، مع حسن الوضع حتى بدا كأنه لم ينسج له نظير على منوال ، وغدا من المؤلفات العديدة المثال »^٢ .

وكان رفاعة حفيظاً بترجمة « تليماك » رأى فيه مسلاته فى الغربية ، وقال فى صدد ترجمته : ان تعريب تليماك بكل من فى حماك ، أو ليس انه مشتمل على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه منار التعليم فى المكاتب والمدارس ، فانه دون كل كتاب مشحون بأركان الآداب ومشتمل على ما به من كسب أخلاق النفوس الملكية ، وتدابير السياسات الملكية »^٣ .

Les Aventures De Télémaque. (١)

(٢) حلية الزمن ص ٢٩

(٣) مواقع الافلاك فى وقائع تليماك ص ٢٤

وقد نرى في اقبال رفاة على ترجمة « تلماك » في محنته.
تنفيساً عما يصدره من شنت الحاكم المستبد الذي طوح به الى
السودان ، فالكتاب في مرماه تقويم للحاكم ونصح للسلطان وهو
من هذا الأدب الرمزي في نقد الحكم والاستبداد في أوربا ابان.
يفظتها القومية ، وكثيرا ما عرض رفاة للكتابة في السياسة.
والحكم كما كان في تخلص الابرز ، وكما أراد في تحرير
الوقائع المصرية لولا أن رأى محمد على أن تخوض الوقائع في
الشئون السياسية كما قدمنا .

وكتاب « مغامرات تلماك » أحد كتابين حظيا باهتمام
رفاة ، أما الثاني فهو كتاب « الجغرافية العمومية » للطبرون
وقد ترجم بعضا منه في باريس ، فلما حل بطهطا كما قدمنا عام
١٢٥٠ هـ ترجم أحد مجلداته وقدمه الى محمد على فأثابه بالترقية
الى رتبة « صاغ قول أغاسي »^١ ، وفي سنة ١٢٦٢ أتم ترجمة
مجلد آخر ، أثيب عنه بالترقية الى رتبة « الأميرالاي » فصار
يدعى رفاة بك بعد أن كان يدعى الشيخ رفاة^٢ . وأكمل ترجمة
أربعة مجلدات فلما طلب اليه في عهد اسماعيل كما ذكرنا من قبل
ترجمة الأجزاء الباقية اعتذر عنها بكثرة العمل وقلة عدد
الترجمين في قلم الترجمة وكان يأمل أن يكون لهذا القلم شأن.
آخر غير ما كان عليه ، فكان رد الفعل لاهماله هذا الاعتذار عن
ترجمة ما تبقى منه رغم حبه له .

(١) صدر محمد على ص ٢٩٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٥

وكثيرا ما كان يمزج بين الترجمة والتأليف فيعمد الى ترجمة كتاب فلا يراه وافيا بقصده ، فيضيف اليه من معارفه ومما يترجمه عن كتب أخرى . فعندما بدأ بترجمة ما دعاه « التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » لتلاميذ المدارس رآه قد أوجز جغرافية البلاد العربية وأسهب في جغرافية أوروبا ، فأخذ يكمل ما يتم به قصور الكتاب بالرجوع الى عدد من الكتب الفرنسية الأخرى ، فجاء الكتاب خلاصة وافية لعدد من المراجع الجغرافية . وأصبح وافيا — كما يقول — « بحاجة المدارس في مصر وسائر بلاد الاسلام » .

وكان من عادة رفاعة أن يمهّد للكتاب بمقدمة يبين فيها ماهية موضوعه ، وقد تناول في مقدمة كتابه هذا فروع الجغرافية ، فما يعرض منها لشكل الأرض وصورتها وسكونها وحركتها ومكانها من النجوم . والكواكب الأخرى فهو الجغرافية الرياضية ، فاذا تناول طبقاتها ومياهها ومعادنها ونباتها وما يعيش عليها من صنوف الحيوان فهو الجغرافية الطبيعية ، وهي جغرافية دينية اذا كان موضوعها الأديان والملل التي تنتشر على سطحها . وهي جغرافية سياسية اذا ما تناولت الحكم والسياسة وتدير الأمم ، فاذا قصرت على آداب أهل الأرض وأخلاقهم وعوائدهم وطبائعهم وأحوالهم فهي جغرافية أدبية ، ولعلها كانت أول محاولة في العربية لتعريف الجغرافية وأقسامها الحديثة .

ومن قبيل « التعريبات الشافية ... » — رسالة في جغرافية بلاد الشام — يقول انه رجع في كتابتها الى كثير من الكتب

(الفرنسية والعربية) عول فيها على كتاب ملطبرون وعلى قاموس « مسليه » في ذكر البلدان وما يتعلق بها .

فاذا تتبعنا ترجماته الأخرى نراه قد ترجم وهو في باريس كتاب « دبنج » أخلاق الأمم وعوائدها ^١ — ولعله قد أقبل عليه من باب المران على الترجمة في موضوع فيه بعض الطرافة ، وقد دعاه حينذاك « دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدها » ولكنه اختار له عند طبعه اسما آخر هو « قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر » .

والكتاب موسوعة طريفة لأخلاق الأمم وعاداتها وتقاليدها ، لا يله القارىء لكثرة ما حوى من غريب الطباع وتفاوت السلوك وتباين العادات والتقاليد ، تجد رفاعة وقد نصب نفسه فيه رقيبا على المؤلف وكأنا أمانة النقل لا تعنيه بقدر ما تعنيه فائدة قرائه وخير مواطنيه ، فيحذف ما لا نفع فيه ، أو ماري فيه تجريحا لأمته ودينه ، أو يضيف من تعليقاته ما يصحح فكرة أو يأتي بفائدة كراهية في حقوق النساء وما يجب لهن من احترام ، أو يعلق على واقعة أو رواية تاريخية أو أدبية .

ولا نرى أكثر ما ترجم بعد ذلك الا للمدارس أو ما تكلفه به الحكومة من أعمالها كترجمة القانون المدني الفرنسي وقانون التجارة في عصر اسماعيل ، وقد اتفرد منها بترجمة قانون التجارة وقام بالقانون المدني قلم الترجمة تحت اشرافه ، كما أشرف على أكثر ما ترجم من كتب في ذلك العصر .

Depping : Mœurs et Usages des Nations. (١)

وكان شأنه في التأليف شأنه في الترجمة ، فقد ألف للمدارس كتباً مدرسية مطلوبة كما ألف للناس كتباً عامة ، إلا أن طابع الاحتراف غلب عليه في الترجمة فهو يترجم ويشرف على ما ترجمه غيره مما تتطلبه المناهج المدرسية أو تكلفه به الدولة ، ولا يترجم بعد ذلك إلا ما يستهويه ويرى فيه تجديداً للفكر العربي ، أما التأليف فكان هوايته الأصيلة ، رأى فيه منفذاً لأفكاره ومعارفه فأقبل عليه منذ البداية ، إلا أن الترجمة تشغل معظم سنواته الأولى حين كانت المدارس في حاجة إلى الكتب الدراسية العربية وحين أُلقيت أعباء الترجمة عليه وحده في عهد محمد علي ، فلما حمل هذا العبء عنه تلاميذه وقلت أعباؤه الوظيفية في عصر اسماعيل أقبل على هوايته الأولى من التأليف ، فكتب أحسن مؤلفاته وأكثرها نفعاً ، ومنها ما كتبه لسد حاجة المدارس من الكتب المقررة ، ومنها ما كتبه — كما يقول — بقصد « أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة ، لمنفعة وطنه العمومية ، وينصح لبلاده ببيت ما في وسعهم من المعلومات »^١ وإن لم تخل بعض كتبه المدرسية من تلك الخوافز التي كانت تحمل المعلم دائماً على تعليم الناس وتزويدهم بالمعرفة الصحيحة والفكرة السديدة والرأي الصائب .

وظفر التاريخ بجل اهتمامه في التأليف كما ظفرت

(١) مناهج الألبان ص ٤

الجغرافية بجل اهتمامه في الترجمة ، وفي التاريخ كانت أهم كتبه وأجدرها بالبقاء . واليه يرجع الفضل في الاعتراف بالتاريخ كمادة من مواد الدراسة ، في مدرسة الألسن أولا ثم في المدارس التجهيزية بعد ذلك ^١ ، والعناية بتزويد المكتبة العربية بالكتب التاريخية المترجمة فعهد الى تلاميذه في مدرسة الألسن بترجمة كتاب في تاريخ القدماء أضاف اليه ما ينقصه من « تاريخ الخليفة والعرب » بفصول من كتاب « عماد الدين أبي القدا سلطان حماه » ودعاه « بداية القدماء وهداية الحكماء » ثم تخير كتابا آخر في تاريخ العصور الوسطى ، كلف بترجمته « مصطفى الزرابي » أحد تلاميذه ودعاه : « قرّة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون » وغير ذلك من الكتب التي تخيرها للترجمة وأهمها كتابان في تاريخ فرنسا وآخر في تاريخ « بطرس الأكبر ، وثالث في تاريخ مملكة السويد حتى عهد « كارلوس الثاني عشر » .

فلما اتجه الى التأليف التاريخي سار على نهجه في العمل على ايقاظ المصريين يبعث أمجادهم القديعة وتعريفهم بتاريخهم العظيم ، وكان التنقيب في آثار مصر والوصول الى مدلولات الكتابة الهيروغليفية قد كشفنا عن صفحة باهرة من تاريخها الطويل رادها الأجانب قبل أن يرودها المصريون وحملت رفاعة حين فكر في كتابة تاريخ مصر أن يبدأ بتاريخ الفراعنة وكان

(١) الشبال : التاريخ والمؤرخون ص ٥٦

أول من أشاد به واعتد بترائه ^١ ، فكان دائم التنويه به
ببأعجاده ، فان مصر — كما يقول — أم الحضارات « لم تسبقها
أمة في ميدان المدنية ولا في حومة تقنين القوانين وتشريع
أحكام الأحكام المدنية ، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا
حمة ، ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا
حولة » ^٢ .

فرفاعة — كما يقول الشيال « أول مؤرخ مصرى عرف
تاريخ مصر القديم على حقيقته في ضوء ماوصلت اليهالكشوف
الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون في عصره ، وهو أول
مؤرخ مصرى آمن بأعجاد هذا التاريخ المصرى الفرعونى
القديم ، ولم يلعنه ولم ينقص من قدره » ^٣ ، « وانه ليقف أمام
هذا مبهوراً في فخر يملأه الاعتزاز بأعجاد هذا الوطن فمصر » في
أيام الفراعنة أم أمم الدنيا ، وكانت شوكة سلاحها قوية ،
وهيبتها في القلوب متمكنة عليه ، وفي أيام الاسكندر ومن بعده
البطالسة ، وأزمان دولة الرومانين القاهرة العابسة ، كانت
مصر أيضاً رحيبة الدولة مهيبة الصولة ، كما انتعش في سجايا
قلوب الأمم عن فخارها ، وارتسم في مرايا الملل من رفعة منارها ،
فكانت اهابتها بالقوة المعنوية بقدر اهابتها أيام الفراعنة بالقوة
الحسية ، أو ليس أن حكماء الاسكندرية وعلماءها وفلاسفتها

(١) المصدر السابق ص ٧١

(٢) انوار توفيق الجليل : ص ٥

(٣) الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ٧١

اشتهروا بالعلوم الفعلية لا سيما علم الأخلاق والعوائد ، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم ، وأخذ عنهم الصادر والوارد ، والمتردد والوافد عموم المنافع والفوائد ، فتشعبت منها العلوم في سائر معالم البلاد ، فتغيرت أحوال البلاد تغاير حثيثة ونشأ عنها صورة حوادث الأزمان الحديثة ، وكذلك في القرون الوسطى المعلومة التي افتتحتها فتوح الاسلام لمصر في حالة مفهومة ، تجدد في مصر ما لا مزيد عليه من التقدّمات والأهمية مما لا يكاد يوجد في غيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية ، اذ كانت قطب رحى ديار الاسلام ومركز دائرة شريعة خير الأنام ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الأفرنج ، وغلبوا الجمل الغفير ، وهزموا الجند الكثير ، وظهروا عليهم في جهاد أهل الصليب ، وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم بتوطين النفس في الحرب على الشدة والتصليب ، ولما ظهر ملك فرنسا بجهة دمياط والمنصورة ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة ، وفادى بنفائس الأموال نفسه ، وعاد الى بلاده ... ومن سوابق هذه المخالطات الشرفية ، وعلائق التقدّمات الأندلسية انتشر التمدن من المشرق الى المغرب ، وأعظم الفضل لديار مصر في انتشار هذا التمدن المرقص المطرب^١ .

واستوعبت هذه الفترة من تاريخ مصر حتى الفتح العربي الجزء الأول من كتابه « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر

(١) أنوار توفيق الجليل : ص ٩ - ١٠

وتوثيق اسماعيل » ، وختمه بفصل عن حياة العرب قبل الاسلام .

ورأى رفاعة قبل أن يمضى فى تاريخ مصر الاسلامية أن يؤرخ لصاحب الدعوة الاسلامية عليه الصلاة والسلام فكتب « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » تناول فيها سيرة النبى الكريم منذ ولد حتى انتقل الى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل للمسلمين دينهم وتمت لهم نعمة الاسلام ، وختمه بفصل عن الحكومة الاسلامية فى حياة الرسول مدلا على أن نواة الدولة الاسلامية بنظمها السياسية والمالية والاجتماعية قد وضعت فى حياته .

ويقال انه مضى فى كتابة تاريخ مصر الاسلامية حتى خلافة المطيع وقام ابنه « على باشا فهمى » باكماله من بعده على منهجه وأسلوبه ^١ ، ولا يجد الشيال ما يستدل به على وجود هذا الجزء أو ما يثبت أن ولده قد استكماله من بعده ^٢ ، ولا يتسنى له أن يتم ما اتتواه من كتابة تاريخ مصر المطول غير هذين الجزئين . وكانا الى عهده وما بعد عهده بسنوات أحسن ما كتب فى هذا الموضوع ، فقد اقتطع المؤرخون عن كتابة السيرة النبوية — على كثرة ما كتب فيها من قبل — نيفا وأربعة قرون . وكان كتاب « امتاع الاستماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع » للمؤرخ المصرى تقي الدين المقرئى فى منتصف القرن

(١) بدوى : رفاعة ص ١١٦ ، وحلية الزمن : ص ٦٢

(٢) الشيال : التاريخ والمؤرخون : ص ٨٣ ، وحلية الزمن : هامش ص ٦٢

الخامس عشر الميلادي آخر ما كتب فيها ، ثم جاء رفاعة فكتب هذه السيرة الجديدة ، ولم يلج مؤرخ بعده ميدانها حتى كتب هيكمل « حياة محمد » عام ١٩٣٥^١ فكانت فتحاً جديداً في التأريخ للسيرة وفي كتابة التاريخ الاسلامي على نمط علمي حديث .

ولا يأتي رفاعة في كتابة السيرة بجديد ، فنراه يسير على نهج من سبقه من المؤرخين مؤيداً من حيث المنطق الجدني ما سبق أن جاءوا به دون أن يلجأ الى التحليل والاستقراء العلمي الذي افتح به « هيكمل » نمطاً جديداً في كتابة حياة الرسول الكريم . وان كنا لا نعطيه حقه في التأريخ لنشأة الحكومة الاسلامية على عهد النبي حين رأى في أعماله (عليه الصلاة والسلام) نواة للنظام الاسلامي في نموه وتطوره من بعد .

أما « أنوار توفيق الجليل » فقد نحا فيه نحواً عد جديداً في عصره ، فالى ذلك الوقت كان تاريخ مصر القديم مليئاً بالأوهام والأباطيل فضلا عن اغفاله اغفالا يكاد يكون تاماً من المؤرخين العرب الا ما تواتر اليهم من كتابات اليونانيين ، فلما بدأ التنقيب في آثار مصر القديمة ، وأخذ علماء الغرب يبحثون في تاريخها ويكتبون عنه ، استنار رفاعة بما أضافوه الى هذا التاريخ من صفحات كانت مجهولة ، فجاء كتابه أوفى ما كتب بالعربية وأقربه

(١) المصدر السابق : ص ٨٠

الى الصديق حينذاك ، وان غدا بعدما كشف من آثارها وأسفرت
عنه البحوث من تاريخها لا يصور حقيقة هذا التاريخ ، ولكن
يكفى رفاعة أنه كان أول من نوه بجلال هذا التاريخ ولفت
الأنظار اليه .

وتحفزه الرغبة الى تقع مواطنيه وتقدم بلاده فيبذل من
فكره ما يهديهم الى الرشد من أمرهم ، وتبين طريقهم بعد أن
سارت البلاد في طريق العمران ، ودبت اليها اليقظة التي تبشر
بالخير ، ويكتب لهم « مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب
العصرية » صنف فيه — كما يقول — « نخبة جليلة ... في المنافع
العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية ، اقتطفتها من
ثمار الكتب العربية الياقة ، واجتنتتها من مؤلفات الفرنسيات
النافعة ، مع ما سنع بالبال ، وأقبل على الخاطر أحسن اقبال ،
وعززتها بالآيات البيئات والأحاديث الصحيحة ، والدلائل
البيئات ، وضمنتها الجمل الغفير من أمثال الحكماء ، وآداب
البلغاء ، وكلام الشعراء ، من كل ما ترقح اليه الأفهام ،
وتتراوح به عن الذهن الأوهام »^١ .

ويرد رفاعة التمدن الى أصلين : معنوى ومادى ، فالمعنوى
ما يتصل « بتهديب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية »^٢
والمادى ما يتصل « بالمنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى .
وتحسين الحال على الهيئة الاجتماعية »^٣ ، ويمضى في عرض

(١) مناهج الألباب : ص ٥

(٢) المصدر السابق : ص ٧

(٣) المصدر السابق : ص ٨

أسباب التمدن فيقول : ان « الرغبة في تمدين الوطن لا تنشأ الا عن حبه » وقد بلغت مصر من « التمدن الحقيقي والمعنوي » ما يرده الى « الحمية الوطنية في أبناء مصر » ، ويعرف المنفعة بأنها : « ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مملكة لراحة أهلها ، وتنظيم أحوالهم من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع في المملكة ، وبها يترقى الوطن ، ويشترك في ثمرتها أربابها »^١ ويرد الثروة أو « اكتساب المال » الى مصادر ثلاثة هي : الزراعة والصناعة والتجارة ، فاذا تحققت هذه المنافع ، وساد العدل والانصاف ، نمت الثروة وعم الرخاء ووفي الناس بحقوق « المملكة القائمة بحفظهم وصياقتهم » ولا يتأتى ذلك ما لم يكن « العمل والكد ومزاولة الخدمة » دأب الناس ، « فلو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من ايرادها للعمل ، وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة ، ودليل ذلك : أن الأمة المتقدمة في ممارسة الأعمال والحركات الكدية ، ذات الكمالات العملية المستكملة للأدوات الكاملة ، والآلات الفاضلة ، والحركة الدائمة ، قد ارتقت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فان أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج ، فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وأفريقية ، ظهر

(١) المصدر السابق : ص ٢٤

لك حقيقة ذلك ، فمن هذا يظهر أن أساس الغنى مبنى على كثرة الأشغال والأعمال ، فهي مصادر وموارد للأموال ومنابع لأسعد الاقبال »^١ .

ويخوض رفاعة في مسائل عدة قد تبدو بعيدة عما اختطه للكتاب ، الا أنها تسير في اطار الفكرة العامة التي قررها للتقدم والعمران ، وان أفاض في بعضها فعلى نهجه الأصيل من التوسع والاستطراد وضرب الأمثال والحكم نظما ونثرا ، والاستشهاد بوقائع التاريخ ، مما يراه كفيلا بجلاء فكرته وبيان غرضه ، فضلا عن تزويد القارئ بألوان المعرفة التي تنمى ثقافته ، وتحيطه علما بشئون حياته كحديثه عن العمد والمشايخ ، وعما بأرض مصر من الطمى ، وعما يجب من « التسوية بين أبناء الوطن من غير نظر الى اختلاف في الدين » ، فاذا عرض لواقعة من وقائع التاريخ المصرى في بعض تلك الأحاديث نراه يسهب ويفيض ، وينتقل في سهولة ويسر بين الماضى والحاضر فهذا مطلب فى « سياسة مصر فى القديم » وذاك فيما « يدبره المرحوم محمد على من أصول المنافع العمومية » ولا يقف عند تاريخ مصر وحده ، بل يعدوه الى التاريخ الأوربى فيعبر على مناقب الملوك والوزراء وأعمالهم ومن عاصرهم من سلاطين آل عثمان ، ويذكر من كان منهم على زمن (لويز الرابع عشر) عندما يكتب عنه ، ويقتنص أحيانا من وقائع التاريخ ما يرفع من ذكر بلد كقوله

(١) المصدر السابق : ص ٨٨

في « كون مقدونيا موطن أميرين جليلين اسكندر ومحمده
على » .

ويمضي مباحج الألباب على هذا النمط موسوعة لشتى
الآراء والمعارف في قالب من السرد التاريخي اللطيف ، ويختمه
بعض طبقات الأمة على العمل والقيام « بما يجب عليهم من
الحقوق لوطنهم » . ويرى أن الأمة تتكون من طبقات أربع هي :
طبقة ولاية الأمور . وطبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين ، وطبقة
الغزاة ، وطبقة أهل الزراعة والتجارة والصناعة ، ويذكر لكل
طبقة حقوقها وواجباتها وصفاتها ، ويقرر أنهم جميعا متحدون
« في وصف الأهلية » التي تحملهم — أيا كانت طبقتهم — على
خدمة بلادهم والتعاون « على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم
السياسية » .

ومن كتبه المدرسية « المرشد الأمين للبنات والبنين » كتبه
حين طلب ديوان المدارس إليه أن يؤلف « كتابا في الآداب
والتربية ، يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » الا أن
لهذا الكتاب من الأهمية في دراسة فكره ما حملنا على إثاره
على غيره من كتبه المدرسية العديدة بالبحث والتحصيل ، فقد
عرض فيه لتعليم المرأة وما لها من حقوق اجتماعية وللعلاقة بين
الجنسين ، فيقول في تعليم البنات : « ينبغي صرف الهمّة في
تعليم البنات والصبيان معا ... فتعلم البنات القراءة والكتابة
والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدن أدبا وعقلا ويجعلهن
بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي ،

فيعظم من في قلوبهم ، ويعظم مقامهن ، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأفاعيل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء ، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها وهكذا ، وأما القول بأنه لا ينبغي تعليم النساء الكتابة ، وإنها مكروهة في حقهن ، ارتكانا على النهي عن بعض ذلك في بعض الآثار ، فينبغي ألا يكون ذلك على عمومه ، ولا نظر إلى قول من علل ذلك بأن طبعهن المكر والدهاء والمداينة ، ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن ، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ككتابة رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمرو وبيت شعر إلى خالد ونحو ذلك . وإن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال في جودة العقل وصواب الرأي وحب الفضائل للفعل ، فكان الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل ، فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة ، ولا تنطبق على جميع النساء ، وكم من فهي وردت به الآثار كحب الدنيا ومقاربة السلاطين والملوك ،

والتحذير عن الغنى ، فقد حمل على ما يعقبه شر وضرر محقق . وتعليم البنت لا يتحقق ضرره فكيف ذلك وقد كان من أزواجه (صلى الله عليه وسلم) من يكتب ويقرأ ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبي بكر (رضى الله عنهم) وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان ، ولم يعهد أن عدداً كثيراً من النساء ابتذلن ، بسبب آدابهن ومعارفهن ، على أن كثيراً من الرجال أضلهم التوغل في المعارف ، وترتب على علومهم ما لا يحصى من شبه الخروج والاعتزال ^١ .

ويستطرد فيرد السبب « في حرمان البنات من الكتابة » الى الغيرة الجاهلية ويقول ان تعليم البنات يحملهن على « الأخلاق الحميدة » ويؤثر « كثيراً في أخلاق أولادهن » ، ويستشهد بالحديث « على أن تعلم النساء الكتابة جائز وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به ، حيث اشتركن معهم في أصل الطبائع والفرائض » .

وتلك دعوة الى تحرير المرأة من ورق الجهل وخبث الغيرة الجاهلية والى مشاركة الرجل في العمل بقدر ما تطيق ، حملها رفاعة قبل أن ينادى بها « قاسم أمين » بنيف وثلاثين عاماً ، بل أبعد من ذلك حين كان رفاعة في باريس ورأى مشاركة المرأة للرجل فنوه بها واستحسنها .

(١) المرشد الأمين : عنوان « في تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان » ص ٦٦

ويحمل الكتاب آراء جديدة — على المصريين حينذاك —
في الآداب والسلوك والتربية ، وما يجب على المواطن لوطنه ،
وما للمواطن من حق الحرية والمساواة مع غيره من « أهالي
الجمعية » . ويقصد بالجمعية المجتمع القومي الذي يربط
المواطنين بعضهم الى بعض ، فالحرية « هي رخصة العمل المباح ،
من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محذور ، فحقوق جميع
أهالي المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية ، فتتصف المملكة
بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متحصلة على حريتها ،
ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر يباح له أن ينتقل
من دار الى دار ، ومن جهة الى جهة بدون مضايقة مضايق ،
ولا اكراه مكره ، وأن يتصرف كما يشاء في نفسه ووقته وشغله
فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع أو السياسة ، مما
تستدعيه أصول مملكته العادلة ، ومن حقوق الحرية الأهلية
ألا يجبر الانسان على أن ينفي من بلده ، أو يعاقب فيها الا
بحكم شرعي ، أو سياسي مطابق لأصول مملكته ، وألا يضيق
عليه في التصرف في ماله كما يشاء ، ولا يحجر عليه الا بأحكام
بلده وألا يكتم رأيه في شيء ، بشرط ألا يخل ما يقوله أو
يكتبه بقوانين بلده »^١ .

ويقسم الحرية الى خمسة أقسام : « حرية طبيعية » كحق

(١) المصدر السابق : عنوان « في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي
الجمعية » ص ١٢٧ — ونلاحظ أن هذه الآراء قد نشرها جون ستيوارت مل في
كتابه « عن الحرية » في نفس الوقت في إنجلترا .

الإنسان في « الأكل والشرب والمشى » مما خلق معه وطبع عليه ، « وحرية سلوكية » وهي — كما يقول — « حسن السلوك ومكارم الأخلاق » و « حرية دينية » وهي : « حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط ألا تخرج عن الدين » و « حرية مدنية » وهي « حقوق العباد والأهالي الموجودين في مدنية بعضهم الى بعض » و « الحرية السياسية أى الدولية » وهي « تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية ، واجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه في شيء منها » .

ويقول ان الحرية « بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى في اسعاد أهالى الممالك ، فاذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالى واسعادهم في بلادهم ، وكانت سببا في حبهم لأوطانهم ، وبالجملة فحرية أهالى كل مملكة منحصرة في كونهم لهم الحق في أن يفعلوا المأذون شرعا ، وألا يكرهوا على فعل المحظور في مملكتهم » .

ويرى ان الحرية قرينة المساواة فكلاهما « ملازم للعدل والاحسان » وهي « بين أهالى الجمعية صفة طبيعية في الانسان تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية ، وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم » .

ومهما اختلف الناس في الصفات والمزايا فهم « جميعا في مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد في استعمال

المواد التى تصون حياتهم ، فهم مستوون فى ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض فى ميزان المعيشة ... فالتسوية فى الحقوق ليست الا عبارة عن تمكن الانسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من اخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا ، فكل انسان يتصرف فى أملاكه وحقوقه تصرفا كتصرف الآخرين ، أيا ما كانت فى المملكة صفته شرفا أو ضعة فهو مساو للجميع فى تصرفاتهم . ثم يقرن الحق بالواجب فيقول : « ان استواء الانسان فى حقوقه مع غيره ، يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات التى تجب للناس بعضهم على بعض لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات » ١ .

فالمرشد الأمين للبنات والبنين ، ليس كتابا للمطالعة فى المدارس — كما كان الغرض من تأليفه — ولكنه موسوعة للآداب والسلوك والحقوق والواجبات فى مجتمع متكامل تسوده الحرية والمساواة ، ويستوى فيه الناس من الجنسين فى الحق والواجب . وتتبدى فيه الى جانب «تخليص الابريز» و «مباهج الآداب» آثار فكره وتحضره من أوهام العصر المظلم الذى خيم على البلاد العربية زهاء ثلاثة قرون أو تزيد فكان رائد فكر وامام نهضة . وكان الصوت الرخيم فى يقظة المصريين ، صوت المعلم الهادى الى سواء السبيل .

(١) المصدر السابق : نفس الموضوع .

أسماء نهضة

نشأ الطمطاوى فى أسرة أمدته بزاد من الثقافة لم يكن هناك ما يفضلها أو يعلو عليها ، فلما نزع الى الأزهر نمت حصيلته من المعرفة والعلم السائدين فى عصره ، واتيح له أن يلتقى بالشيخ حسن العطار فوجهه الى ألوان جديدة من المعرفة لم تكن مألوفة حينذاك ، ولم تكن مما يقبل عليها من وقفوا حياتهم على العلم من شيوخ الأزهر وطلابه .

وكان الى هذا قراء نهما ذا ذاكرة قوية ، وقدرة على التأمل والاستقراء قل أن تفوته معهما النظرة العميقة أو يخذله المنطق القويم ، فاستطاع أن يدرك فى سر ما تنطوى عليه اتجاهات العطار من حق وخير ، وأن يتبين ما تردى فيه الأزهر من جمود ، وما حل بالناس من ركود الفكر وفتور الهممة ، وعرف فيه العطار اتجاهها الى التجديد وميلا الى المعرفة التى لاتحددها علوم الأزهر وحلقات شيوخه ، ولعله رأى من اقباله على الشعر والأدب وحبه للفلسفة والمنطق والثقافة العربية القلبية التى انصرف عنها غيره من العلماء — الا قلة لا تذكر — ما قر به اليه ، فأحاطه بالرعاية والتوجيه ، وعقد عليه بعض ما كان يأمل فرشحه للسفر الى باريس عل فراسته تصدق فيكون له شأن فيما يدعوا اليه من تطور وتجديد .

ويرتحل الطهطاوى الى باريس وفى نفسه ما بنفس العطار
من شوق الى العلم الحديث ، ويرى بعد ما بين بلاده وهذه
البلد الغريب فى الحضارة والتمدن ، فيهب نفسه لتجديد وجه
الحياة فى مصر وبعثها من مباتها الذى طال فخلفها على هذا
الحال الذى أمضه وهو يرى ما بلغه الغرب من تقدم وارتقاء .
ويدرك أن الاعتراف من علوم الغرب هو سبيل بلده الى اللحاق
بهذا الغرب الناهض ، ولا يشر العلم ما لم يقم على وعى الأمة
وبعث تراثها الماضى وتجديده ، ثم الايمان بعلم الغرب وفنونه
وصناعته ايمانا لا يقف دونه تعصب عنصري أو ثقافى أو دينى
ولا يعوقه شعور كاذب بالاستعلاء أو الكبرياء القومى ،
ويستشهد فى هذا بالحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن
يطلبها ولو فى أهل الشرك » ، و « اطلب العلم ولو فى الصين »
ولا يفوته التعريف بأن أهل الصين وثنىون ، ولا يكتفى
بالاستشهاد بالحديث وحده ، ويقتنص الحكمة من بطون
التاريخ ، ويرى فى قول بطليموس الثانى : « خذوا الدر من
البحر ، والمسك من الفارة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن
قالها » ما يؤيد رأيه ويعزز دليله .

اذن فقد اهتدى الطهطاوى الى الأساس الذى يقوم عليه
بعث مصر ونهضتها الحديثة ، وهو ما اهتدى اليه العطار دون
أن يجد السبيل اليه إلا فى احياء المهجور من أدب العرب
وتقافتهم الباهرة ، يوم أن كانت الثقافة العربية هى الشعاع
الزاهى الذى ينير سماء العصور الوسطى ، وفيما عرفه من

اتصاله بالفرنسيين على عهد الحملة الفرنسية على مصر ، ولم
يتيسر له أن يرى صورة تلك الحضارة الفرنسية كما رآها
الطهطاوى ، فاذا كان قد وضع البذرة بخروجه على جمود
الأزهر واقباله على الدراسات المتنوعة كالفلسفة والأدب
والتاريخ والجغرافية وغيرها من العلوم الطبيعية ، ومناداته
بتطوير الدراسة في الأزهر وبعث تراث العرب المهجور ، فقد
تعهد الطهطاوى تلك البذرة بالرى والسقى فربت على يديه
وأثمرت حركة التجديد التى استقام عليها الفكر المصرى من بعد
وامتدت لتشمل كل جوانب الحياة فى مصر على يد الأفغانى
ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب ، فما من
حركة من حركات هؤلاء المصلحين على اختلاف ما بينها من
اتجاهها الا وهى صدى ، أعمق ما يكون الصدى ، لجانب من
الجوانب العديدة فى فكر الطهطاوى ودعوته للارتقاء والتمدن .

ولا ندعى أن الأفغانى قد تأثر بالطهطاوى ، ولكن حين
جاء الأفغانى الى مصر ، وجد الطهطاوى قد هباً له تربة الثورة
الفكرية والسياسية التى دفع اليها المصريين ولفحت حرارتها
بقاعاً عديدة من عالم الاسلام ، فقد اجتمع اليه أولئك الذين
تربوا فى مدرسة الطهطاوى الفكرية ، على بعد ما بين الرجلين
فى الطريقة والأسلوب ، فقد نشأ الطهطاوى فى زحاب محمد على
وتقياً ظلال نعمته ، فاذا انساق فى تمجيد محمد ما أثره فله عذر
الوفاء ، وان كنا لا نراه يندفع فى تمجيد محمد الا بقدر ما تظل

نعمته البلاد فيحمد له جهده في نشر العمران « فمن مبدأ توليته وهو يعالج في مداواة دائها الذي لولاه كان عضالا » ١ .

ولا يفوته أن يتحدث عن الحكم والسياسة والعدالة والمساواة أمام القانون دون أن يتطرق الى حكم الوالى أو قد سياسته ، وانما كان يبرز محاسن الشيء لمن يدرك ويقارن ، ويكتفى برسم الصورة دون أن يقرنها بغيرها من الصور الماثلة في بلاده الا ما كان بعيداً منها عن السياسة والحكم ، ولم تحمله المقارنة أبداً الى الخط من شأن قومه أو تسفيه أعمالهم ، فما لهذا الغرب الذى يحتذيه من فضل في التقدم الا أنه غداً الخطى

بينما وقف العرب والمسلمون في مكانهم لا يتحركون ، وحين جمدوا غاب عنهم تراثهم القديم وغامت في أعينهم أمجادهم حتى غدت نسيا لا تحرك طموحا ولا تثير حمية ، بل لعل سبق العرب في التقدم — مما يعترف به الغرب — يجعل لهم الفضل عليه .

وكان الطهطاوى يدرك تماماً أن جهده وعمله متعلقان برضاء الوالى ، ويعرف أن دعوته للعمران والتقدم والنهضة لا يمكن أن تسير دون عائق ما لم يحذر الوالى ويتراضاه حتى يضمن لدعوته حرية الحركة والانتشار ، فما كانت المدارس تفتح الا بأمره ، وما كانت الكتب تطبع وتشر الا بإرادته ، ولم يكن للرأى العام من القوة حينذاك — ولعله ان وجد ما كان يرضى عن هذه الأفكار الجديدة الواردة من الغرب — ما يحمله على أن يركن اليه .

فكياسة الطمطاوى فى ابلاغ دعوته — ان وصفناه
بالكياسة — كانت وليدة البيئة التى وجد فيها والظروف التى
عاشها ، وان كنا لا نعى أن يتحول الرجل ثائراً اذا وجد فى
البيئة أو الظروف التى واجهها الأفغانى ، فقد كان الأفغانى
ثائراً بطبعه ، وكانت الكلمة وسيلته والدعوة غايته ، فضلاً عن
خوافز الثورة التى تدفعه الى العمل وتحمله على التحدى ،
فأينما وجد فالثورة فى أعقابهِ ، وأينما كان فالحمية التى تلغى
الناس فى كل مكان ، بينما كان الطمطاوى معلماً يركن الى
الكلمة فى الدرس والكلمة فى الكتاب ، يحكمه الدرس ،
وتحكمه القدرة على نشر ما يكتب ، فاذا تهيأ له الدرس فقد
أوفى على غايته واذا تهيأ له الوقت للتأليف وواتته القدرة على
نشر ما يكتب فقد أبلغ رسالته وأداها خير الأداء ، أما الأفغانى
فكان له فى كل منتدى مدرسة ، وحين سئل مرة عما يحمل من
أسفار أشار الى صدره وقال : « صناديق الكتب هنا »^١ .

وكانت كلمته تنفذ الى الناس فيتهافتون عليه ويقصدون
ندوته ، فاذا ضاق بمكان — وما كان يضيق أبداً بمكان ، الا أن
يحمل عنه قسراً — فله فى غيره منتج ودعوة ، وأينما يكون
فدعوته فى الخافقين يتردد صداها فى كل بلاد الاسلام فتهمز
العروش ويخشها السلاطين والملوك .

وقد جرب الأفغانى أن يبذر بذوراً فى فارس والآستانة فلم

(١) زعماء الاصلاح ص ١١٧

تثبت ، ثم جربها في مصر فأثبتت^١ ، بجانها في أواخر أيام
الطهطاوى ، فوجد التربة التى سواها حفية بالبذور التى
يئذرها ، فكان زواد الأفغانى ، هم أنجب أبناء مدرسة الطهطاوى
الفكرية ، ولعل الأفغانى قد ألم بأعمال الطهطاوى وأفكاره ،
وان كنا على يقين من أنه خرج بتلك المدرسة من الولاء للحاكم
والسلطان الى الولاء للشعب ، وكان رأى العام قد أخذ ينكر
فهم ولى النعم وفضله على البلاد والعباد فقد شب الوليد
واستوى على قدميه مستقلا بذاته ولم يعد فى قدرة الحاكم أن
يعوق حركته أو يئد فكره أو يقف دون ارادته . ولم تعد دعوة
المفكر رهينة برضائه أو رفده ، وتحول سند الفكر عنه الى
الشعب ، وكان الأفغانى صاحب الفضل فى هذا التحول
العظيم .

الا أن هذا التحول ما كان يمكن أن يتم ما لم يمهّد له
الطهطاوى ، فقد أثرت جهوده حقا حين وجدت دعوة الأفغانى
أكرم تربة لها فى مصر وحين أثرت فيها ما لم تثمره فى غيرها .

وفى هذه التربة التى سواها الطهطاوى تفتحت البراعم
الأولى فاستوت ثمارا قاضجة وغدت كل حركة من حركات
النهوض والارتقاء ، فحركة التجديد الاسلامى وتطوير التعليم
فى الأزهر ، وقد أثرت على يد الشيخ محمد عبده ، وان امتدت
الى الشيخ حسن العطار ، الا أن اتجاهات الطهطاوى — وان

(١) المصدر السابق ص ٦٢

لم يتصل بالأزهر بعد عودته من فرنسا — فإن ما ألقه من كتب في الفقه والشرعية وما ألقاه من دروسهما بمدرسة الألسن كانت من الاستنارة والتطور بحيث نستطيع أن نعبدتها نواة لحركة التجديد التي تبناها الشيخ محمد عبده .

ففي رسالته « البدع المتقررة في الشيع المتبريرة » وقد نشرت تباعا في روضة المدارس ، يعرض للأوهام الفاسدة التي لا تكاد تخلو منها أمة من قديم الزمان « ومع تقدم التمدن بالعلوم والمعارف والارشاد الى الشريعة الغراء ، فلا تكاد تخلو البلاد الاسلامية الباقية على حالة الخشونة من بقايا أوهام وبدع قديمة أو مختلفة ، كقبيلة اسلامية تنسب الأولاد لأمهاتهم دون آبائهم » ويستطرد من هذا الى الابتداع والبدعة والحكم في تبعية الولد الى الأم ، ومضى يتحدث عن معنى السنة والبدعة وصلة الشرع بالعقل ، مما يعد في ذاته دليلا على التحرر من الجمود والاجتهاد في الحكم ^١ .

وله بحث في الاجتهاد والتقليد دعاه « القول السديد في الاجتهاد والتقليد » عرف فيه المجتهد وأركان الاجتهاد وأدلته ^٢ ، ومراتب الاجتهاد ، فهناك مجتهد مطلق مستقل ، وهو من يجتهد بقواعد يؤصلها وأدلة يحررها ، وبراهين يقررها ، ويفرع عليها كالامام الشافعي مثلا ، ومجتهد مذهب ^٣ ، وهو من

(١) روضة المدارس عدد ١٣ ص ٤

(٢) القول السديد ص ٢

(٣) المصدر السابق ص ٧

يختار طريقة امامه في الاستدلال وينفرع عليها ، بحسب ما يؤدي اليه اجتهاده كالمزني من أصحاب الشافعي ، ومجتهد فتوى وهو القادر على الترجيح في أقوال امامه كالرافعي والنووي .

ولم يصدر الطهطاوي حكما قاطعا في بقاء الاجتهاد ، ولكن مما لا شك فيه أن التعرض لمثل هذا الموضوع مما مهد لحركة التجديد والاجتهاد الذي رادها الشيخ محمد عبده .

والطهطاوي هو الرائد الحقيقي لحركة تحرير المرأة التي وهبها نفسه قاسم أمين ، وقد لا نجد في دعوته أكثر مما دعا اليه الطهطاوي ، غير أن ما واجهه قاسم أمين كان غير ما واجهه الطهطاوي ، فلم يكن الرأي العام القاري أيام الطهطاوي قد تكون بعد ليتابع ما يكتبه وكان أكثر ما يكتبه للمدارس أو لقلّة من القارئین ممن تضمهم دواوين الحكومة ، وكانت الدولة هي التي تشرف وتسيطر على وسائل النشر ، وحين بدأ الرأي العام القاري يتكون في عصر اسماعيل وقامت الصحف ودور النشر الأهلية ، لم يكن لدعوته من التفرد ما كان لدعوة قاسم أمين بل كانت جزءاً من دعوته الاصلاحية العامة فلم تلق من الانتباه ما لقيته دعوة قاسم أمين التي اتفرد بها وتفردت به ، وحظيت من انتباه الرأي العام واهتمامه ما لم تحظ به دعوة الطهطاوي لتحرير المرأة من تقاليد الماضي العتيقة وإن لم يرد فيما كتب عبارة حرية المرأة أو تحريرها .

ومهد الطهطاوي للحركة القومية والدستورية التي دعا اليها وفلسفها لطفى السيد فكثيراً ما تحدث عن الوطن والوطنية

وكثيراً ما تغنى بأمجاده وحبه ثراً ونظماً وكان أول من لفت الأنظار الى ما فى تاريخ مصر القديم من عظمة وما بلغته من حضارة فى ماضيها التليد .

وقد اتخذت الحركة القومية على يد لطفى السيد اتجاهها قومياً محدداً ينحو نحو المصرية والاستقلال عن الدولة العثمانية لما احاط بمصر من ظروف سياسية كانت غير الظروف التى أحاطت بها على أيام الطهطاوى فكان اتجاهه القومى مشوباً بالولاء للخلافة وللرابطة الاسلامية العامة .

وطرق لطفى الحركة الدستورية مباشرة فدعا الى مشاركة الأمة للخديو فى الحكم وبين للناس معنى الدستور والحكم النيابى ونظرية فصل السلطات ، بينما اكتفى الطهطاوى بتعريفهم بها وما أثمرته من تحقيق العدالة والمساواة فى المجتمع الفرنسى ولا يطالب بتطبيقها فى مصر أو فى الشرق الاسلامى الذى يحكم الملوك فيه على هدى الشريعة الغراء كما يشير الى أن هذه المسائل مما لم يرد فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه .

الا أن التعريف بها قد مهد لحركة لطفى السيد فقامت دعوته على الاستنارة والترشيد الفعلين .

ومما يفوت علينا أن نرد حركة طلعت حرب للنهوض بالاقتصاد القومى وتمصيره الى أفكار الطهطاوى وتوجيهه ، الا أن من يقرأ « مناهج الألباب » يرى أن الرجل قد خاض كثيراً فى هذا الموضوع ولمسه من نواح عدة ، بل ان من الكتاب من يرى فيما تناوله اتجاهات سابقة على اتجاهات عصره ، ففى مقاله

« تقسيم محصول الأرض بين مالكيها وزارعها » ما ينم — كما يرون — عن دعوته في هذا الوقت المبكر للاصلاح الزراعى ، ولا نعتقد أن الرجل كان يقصد ذلك بمعناه الحديث ، أو أنه كان يرهص بالغيب ، ولكن كل ما عناه هو ما يقع من غبن المالك لزارع الأرض ، فيقول : « أن المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ، المجتنى لفوائد هذه الاصلاحات العلاجية ، الناتجة في الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية ، والمحتكر لمحصولاتها الايرادية ، انما هم طائفة الملاك ، فهم من دون أهل الحرفة الزراعية متمتعون بأعظم مزية ، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتزمون لنتائجها العمومية ، والمتحصلون على فوائدها ، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع ، فلا يعطون للأهالى الا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم في مقابلة المشقة ، يعنى أن الملاك في العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ، ولا تدفع نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل ، فما يصل الى العمال في نظير عملهم في المزارع ، أو الى أصحاب الآلات في نظير اصطناعهم لها ، هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك ، فان المالك يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض »^١ .

وينم هذا المعنى عن اتجاه واضح نحو الاشتراكية ، فهل نقول ان الطهطاوى قد دعا الى الاشتراكية أو انه صاحب نظرية

(١) مناهج الالباب : مطلب في تقسيم الارض بين مالكيها وزارعها .

فى الاشتراكية أو حتى بشر بها ، ولم تعد فى ذلك الوقت أن تكون جنينا ينمو فى الفكر الأوربى لم يسفر بعد عن نظرية محددة شائعة ؟ بل لعل رفاعة لم يسمع بتلك الكلمة ، وكل ما يمكن أن تفسر به اتجاهات الطهطاوى أنها اتجاهات انسانية مما تجمع عليه الأديان والمذاهب الاجتماعية لتحقيق الخير والعدل والكرامة للانسان .

ولا ندعى أن الطهطاوى قد دعا الى تمصير الاقتصاد المصرى كما دعا طلعت حرب ، وكل ما نستطيع أن نقوله ، انه دعا الى الاهتمام بالانشاء والتعمير والعناية بالتجارة والزراعة والصناعة حتى يعم الرخاء الناس أجمعين ، وهو ما دعا اليه طلعت حرب فى بداية حياته على صفحات الجريدة التى كان يرأس تحريرها نطفى السيد ، حين أخذ يوجه المصريين الى العناية بالصناعة والتجارة والمشروعات الزراعية والاقبال عليها والاهتمام بها ، أما ما دعا اليه من تمصير الاقتصاد فكان متعلقا بظروف عصره وما انتهى اليه الاحتلال البريطانى من تغلغل رأس المال الأجنبى والاستثمارات المالية الأجنبية وسيطرتها على الاقتصاد القومى . فلم يكن التغلغل الأجنبى قد استشرى فى حياة الطهطاوى كد ! استشرى فى حياة طلعت حرب فاختلفت دعوة الرجلين فى الشكل واتفقت فى الجوهر .

وكان الطهطاوى بهذا رائد بعث وامام نهضة استون وامتدت على الزمن الى كافة جوانب الحياة والفكر فى مصر ، وكان دوره فيها — كما قلنا — دور المعلم ، الذى يعلم ويرشد

ويوجه ، في حلقات الدرس ، وعلى صفحات الورق كتاباً أو صحيفة ، وفي كل منها كان أثره بارزاً مشرقاً ، حتى لنستطيع الامبراطور شارل كان للسؤرخ الانجليزى « روبرتسون وليم » ورسم خطوطها من قبل ، فقد احتل خريجوها مناصب الادارة الهامة فى الحكومة وقاموا بتدريس اللغتين العربية والفرنسية فى المدارس الخاصة وكان للمتقدمين فى أول فريق من خريجيها حظ التعيين فيها وفى مدرسة « المهندسخانة » .

ولما أنشئ قلم الترجمة فى أوائل سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤١) تحت ادارة المدرسة ألحق به كل الخريجين^١ تحت اشرف « رفاعة بك » ، وكان ديواز المدارس يتجه اليه فى كل ما يتصل بالقلم وموظفيه^٢ ، فاذا جاء آخر العام قامت لجنة امتحان المدرسة بمراجعة أعماله حتى تستوثق من انجازها فى موعدها ومن دقة الترجمة التى كلف بها .

ونبع من خريجيها من كان لهم أعظم الفضل فى نهضة الترجمة ونقل العلوم الحديثة الى العربية وبعث التقدم العلمى فى البلاد ، منهم « محمد مصطفى البياع » مترجم كتاب « مطالع شمس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر »^٣ ، وخليفة محمود ، وقد أصبح مدرسا بالمدرسة ورئيس فرع العلوم الاجتماعية والأدبيات بقلم الترجمة ، وله مترجمات عديدة فى

(١) الشيال : رفاعة ص ٣٤

(٢) بدوى : رفاعة ص ٤٨

(٣) حلية الزمن وهامشه ص ٤٣

التاريخ كما ترجم « تنوير المشرق بعلم المنطق » و « اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا » ومقدمة تاريخ الامبراطور شارلكان للمؤرخ الانجليزى « روبرتسون وليم » واختار له عنوان « اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان » . وصدر في ثلاثة أجزاء طبعت عام ١٦٢٦ هـ ١ . ومنهم أيضا عبد الله أبو السعود ناظر قلم الترجمة وأستاذ التاريخ العام بمدرسة دار العلوم وصاحب جريدة « وادى النيل » في عصر اسماعيل ، وأول رواد الصحافة الأهلية ، فقد كانت الصحف الى ما قبل صدور وادى النيل صحفا حكومية ، ومن مترجماته « تاريخ الفلاسفة اليونانيين » و « تاريخ مصر القديمة » لمريت باشا ٢ . وغيرهم كالسيد صالح مجدى كاتب سيرة رفاة وقد تخصص في ترجمة كتب الرياضيات والفنون الحربية واشترك في ترجمة القانون الفرنسى ويقول عنه على مبارك ، أن مؤلفاته وتراجمه بلغت خمسة وستين كتابا ورسالة « وكتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر » ٣ . « وأحمد عبيد » رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ومترجم « تاريخ بطرس الأكبر » ٤ وغير ذلك من كتب الرياضيات والفنون الحربية ، والشاعر الناصر رائد القصة الحديثة في الأدب

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة ، وعصر اسماعيل ج ١ : ص ٢٧٩
(٢) حلية الزمن وهامشه ص ٤٤ ، وأعلام الصحافة العربية ص ١١٤ - ١١٨ ، وتاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ١٥٢ - ١٥٧ وعصر اسماعيل ج ١ ص ٢٧١ ، وبدوى : رفاة ص ٩٤
(٣) حلية الزمن : ص ٤٨ ، وبدوى : رفاة ص ٩٦
(٤) حلية الزمن ص ٤٥ ، وعصر اسماعيل ج ١ ص ٢٧٩

المصري « محمد عثمان جلال » ، صاحب كتاب « العيون اليواقظ » وهو تعريب شعري لقصص « لافوتتين » ومواعظه ، ومنظومة « التحفة السنية في لغتي العرب والفرنسوية » ومترجم « پول وفرجينى » ومعرب « ترتوف » لموليير ، ودعاها « الشيخ متلوف » بعد أن أجرى فيها قلمه بالتصرف والتحويل ، وقد مثلت مراراً على المسارح المصرية في بواكير هذا القرن ١ .

ومن أنبغ من تتلمذ عليه في مدرسة الألسن من الأطباء « سالم باشا سالم » مؤلف « وسائل الابتهاج الى الطب الباطنى » وقد طبع في أربعة مجلدات سنة ١٢٩٨ هـ و « ينابيع المحتاج فى الطب والعلاج » و « الينابيع الشفائية والمباء المعدنية » ٢ . ومن المشرعين « محمد قدرى باشا » مؤلف « مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، فى المعاملات المدنية الشرعية » و « الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية » و « قانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف » الى غير ذلك من المعاجم والكتب فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وفى الجغرافية والتاريخ منها كتابه « معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية » ، وقد سبق أن أشرنا الى قدرى باشا فى صدد الكلام عن قلم الترجمة فى عصر اسماعيل ، وما قام به

(١) حلية الزمن وهامشه ص ٥٣ ، وعصر اسماعيل ج ١ ص ٢٧٢

(٢) عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٩٠

مع الطهطاوى من ترجمة القانون الفرنسى وقلنا انه تولى وزارة
الحقانية فى وزارة شريف الدستورية سنة ١٨٨١^١ .

وقد قسم السيد صالح مجدى خريجى مدرسة الألسن الى
ثلاث طبقات ، وذكر أسماء البارزين منهم فى كل طبقة ونوه
بما لهم من فضل على النهضة المصرية وأثر فى تقدم البلاد .

وكان التعليم سبيل الطهطاوى الى الاحياء والتجديد وبعث
النهضة ، فعاش طوال حياته معلما يعلم ويرشد ويوجه ، ويبدو
أنه منذ عرف ما يمكن أن يقدمه لبلاده قد وطن نفسه على أن
يكون معلما ، فلم يكن هناك سبيل للارتقاء غير تعليم الناس
وتوجيههم الى الغاية من حياتهم ، وعلم تلاميذه كيف يعلمون ،
فعرف التربية فى فصل من فصول مقدمة كتابه « المرشد الأمين
للبنات والبنين » ، وما يجب أن يحتذيه المربي فى توجيه الطفل
منذ نشأته الأولى وغرسه بالفضائل الخلقية والدينية ، فاذا شب
عن الطوق غدا قادرا على تمثل معتقدات دينه وفضائل مجتمعه ،
ويشنى فى هذا على التربية اليونانية وما كان نساء العرب يربين
عليه أولادهن من الشجاعة والاقدام ، ويعرض للفروق بين
الفتى والفتاة فى صراحة تفتقدها طرق التعليم ومناهجه فى
نظامنا التعليمى الحاضر ، ففى حديثه عن « الزواج والتسرى »^٢
يخوض فى أخبار النساء ، وفى أذواق الرجال من النساء كتفضيل

(١) حلية الزمن وهامشه : ص ٥٢ ، وتراجم مصرية وعربية ص ١٠١ ،
وعصر اسماعيل ج ١ ص ٢٩٣

(٢) المرشد الأمين : الباب الخامس ص ١٣٤ - ١٦٩

السمرء على البيضاء أو البيضاء على السمرء ، أو السمينة على الضامرة ، أو الضامرة على السمينة ، ويستشهد على ما يراه — كعاداته — بالمأثور من أقوال العرب وغيرهم ، فيروى عن « أبي الفرج في كتاب النساء » قوله : « بنت عشر سنين تشمس وتلين ، وبنت عشرين تسر الناظرين ، وبنت ثلاثين لذة للمعاقين ، وبنت أربعين ذات رخاوة ولين ، وبنت خمسين ذات بنات وبنين ، وبنت ستين عجوز في الغابرين » ، أما في الرجال فيروى ما قال له بعضهم « قالت امرأة لأخرى : ما تقولين في ابن العشرين ؟ قالت : ريحانة تشمين . قالت فابن ثلاثين ؟ : قالت شديد متين . قالت فابن أربعين ؟ قالت : أبو بنات وبنين ، قالت : فابن خمسين ؟ قالت : يجوز في الخاطبين ، قالت : فابن ستين ؟ قالت : صاحب سعال وأنين » ، ويخرج من هذا بالحكم على أن « بلوغ الستين من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الأعمار » . ويستطرد الى أكثر من هذا فيتناول أعمار النساء وما يصدق عليهن من صفات في كل عمر فيقول على لسان من قال : « ان منهن الكاعب وهي التي كعب ثدياها ، أي برزا وظهرها ، ومن طباعها الصدق في كل ما تسأل عنه ، وقلة الكتمان لما علمته ، وقلة التستر ، والحياء والتساهل ، ومنهن الناهد أي التي نهدي ثدياها واستدارا ، ولم يتكامل شبابها ، فتستتر بعض الاستتار ، وتظهر بعض محاسنها ، وتحب أن يتأمل ذلك منها ، ومنهن الممتلئة شبابا ، التي قد استكمل خلقها ، وعظم ثدياها ، فيحدث عندها دلال وأدب ، وتحلو ألفاظها ، ويعذب كلامها ، ويتخلق

فيها الميل لجنسها ، ومنهن العانس ، وهي المتوسطة الشباب التي تهيأ ثدياها للانكسار ، فتحمش مشيتها ومنطقها ، وتبدي محاسنها بخفر ودلال ولعب ، وأحب الأشياء اليها مفاكحة الرجال ، وهي في هذه الحالة ، قوية الميل لما تقتضيه أنوثتها ، مستحكمة العشق ، ومنهن المتناهية الشباب ، ولا شيء أشبه اليها من الاتصال بالرجال ، ومنهن النصف ، وهي التي يأخذ ماء وجهها في النقص ، ولحمها في الاسترخاء ، وذلك بعد مجاوزة الأربعين وهي التي قيل فيها :

وان أتوك ، فقالوا : انها نصف

فان أحسن نصفها الذي ذهب

فتكون ملاطفة للرجال ، مدارية لهم ، شديدة الحرص عليهم ، وما فوق ذلك فالعجوز (أى المسنة) التي يجب على العاقل أن يرغب عن زواجها .

هذا كله في كتاب أعد للمطالعة في مدارس البنات والبنين ، ولعله أراد أن يعلم الشباب من الجنسين ما يقوم غرائزهم ، فلا تضل من قراءة ما يفسدها أو ينحرف بها الى الشذوذ ومجافاة الفضيلة ، وكأنه يستهدى للتربية مذهباً واقعياً أقرب ما يكون الى برجماسية « جون ديوى » وقبل جون ديوى بعشرات السنين .

ونرى هذا الاتجاه الى الواقعية في التربية ماثلاً في الحوافز التي تدفع الشباب الى الفضائل التي ينشدها ، فالمحبة الأخوية لا تستقيم ما لم تستند الى الود بين الآباء والأمهات ، والقُدوة

دون النصيحة هي التي يتمثلها الأبناء عن آبائهم والتلاميذ عن معلميهـم ، واذا وجد الأبناء الانصاف والعدل والمساواة بينهم وبين بعضهم من آبائهم ، شبوا على المحبة والود وكانوا لبعضهم البعض عوناً على الغير وردفاً عند نوازل الزمان . مما « يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها ، ويكون له صورة وجود قوى ... بخلاف ما اذا بغض الاخوة بعضهم بعضاً ، ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة ، وصار أمر كل منهم موكولاً على حـدته لقوة نفسه ، لا ناصر له ولا معين من اخوته ، فانه بهذه المثابة يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والافتراد ، والضعف الشخصي المترتب على عدم الاتحاد »^١ .

وتتقترن الواقعية والمثالية في نظـرته للتربية ، فينـما نراه يتلمس القدوة والواقع في التوجيه والتقويم ، اذا به يتلمس الفضائل والمثل الدينية والاجتماعية للتوجيه والتقويم ، فالواقعية عنده تقوم على النظرة المثالية لمجتمع خير متدين دؤوب عامل ، « فان توصيل الولد الى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حسن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب ، ولا يخفى أن الله سبحانه وتعالى شرف الانسان بمضغتين صغيرتين وهما قلبه ولسانه ، وخصه بصفتين عظيمتين وهما همته واحسانه ، وما عدا ذلك من محض المال أو الجمال فانما هو حظ الأدنىاء من النساء والرجال ، فلا يرتفع المرء حتى

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٨

يرفعه أكبراه وأصغراه ، فالجنان قابل ، واللسان قائل ، والهمة خاملة ، والاحسان فضيلة عاملة . والجنان عارف مستقر ، واللسان معترف مقر ، والهمة حركة منتشرة ، والاحسان بركة مبشرة ، فان الجنان ينشى ، واللسان يفشى ، وكلاهما يساعد الهمة والاحسان والعزم والاتقان ، ولذلك كان الولد بأصغريه ، ومعلوم أن الولد الصغير مستعد بأصغريه الى استكمال أكبريه ، فيحتاج الى التربية التى هى صلة المربي الذى يقيمه الوالى لتأديب الصبى فيما يقصد منه »^١

ويستطرد من هذه التجريدات الى الواقع العملى فيقول : أذ على المربي أن يتبين ميول الطفل « وما هو مستعد له من الأعمال ومتهيء له منها ، فيعلم أنه مخنوق له » ففى الحديث : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فليس على المربي أن « يحمله على غيره . فانه ان حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه عادة ، فيفوته ما هو متهيء له ، فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا ، فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئه لها ... وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، علم أنه لم يخلق لذلك ، فان رأى عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا عليها وهى صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه فليمكنه منها ، وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأسيسية وهى القراءة والكتابة وما يحتاج

(١) مناهج الالباب : مطلب فى تربية الاولاد .

اليه في دينه من العقائد وغيرها ، وأصول الحساب ونحو ذلك من السباحة والعموم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمي واللعب بالرمح والسيف ، وأسباب ذلك من آلات الحرب ليترن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه ، فان هذه الأشياء من المنافع العمومية التي ينبغي تمرين الأطفال من زمن الشبوية عليها ، هذا بالنسبة للذكور ، وأما بالنسبة للبنات ، فان ولى البنت يعلمها ما يليق بها من القراءة وأمور الدين وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز ، وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادئ المعارف النافعة في ادارة المنازل ، فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ، ويشترك الصبيان والبنات في تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك»^١ .

ويستوحى الطهطاوى التربية الاسلامية آراءه ومنهاجه ، فكثيراً ما يستشهد بالحديث الشريف أو يحتذى أقوال المؤدين العرب وفضائل السلوك الاسلامى ، فمن الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « أو ولد صالح يدعو له »^٢ - وقوله أيضاً : - « وبشر المشائين فى الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة »^٣ - وعن أبى هريرة : - « لاتمشين أمام أبيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له - أى لا تعرضه للسب

(١) نفس المصدر ونفس المطلب .

(٢) نفس المصدر : مطلب وضوح العبارة وترك الرموز الخفية .

(٣) المرشد الامين ص ٣٩٢

وتجره اليه بأن تسب أب غيرك فيسب أباك مجازاة لك «^١ ، وعن ابن عمر رضى الله عنه : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان والدي يأخذ مالي وأنا كاره ، فقال : أما علمت أنك ومالك لأبيك » ومن حق الأولاد أعظام الأصغر للأكبر ، وحنو الأكبر على الأصغر ، قال صلى الله عليه وسلم : « حق كبير الأخوة على صغارهم كحق الوالد على ولده »^٢ .

وذكر في كتاب الحسبة عن مؤدبي الأطفال أنه لا يجوز لهم تعليم الأطفال في المساجد لنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين لأنهم لا يتحرزون من تسويد حيطان المساجد^٣ .

وكان هذا دأبه في السند والمصدر فيسوق الرأي أولاً ثم يردفه بما يصدقه من حديث شريف أو رواية صحابي أو عام من علماء الاسلام أو واقعة من وقائع التاريخ حتى يستوى الرأي على هدى ويقين .

ولا يترك سبيلاً من السبل فيما يتطلع اليه من تعليم الناس حتى يطرقة ، فيلجأ أحياناً الى الرجز — وكان فيه ميل للشعر : يقرضه ويستشهد به — كأرجوزته في تأديب الأطفال . يقول فيها : « وقد كنت نظمت في كتاب تعريب الأمثال في تأديب الأطفال منظومة لطيفة ، تحسن بمنوال التعريب نسجها فيحسن هنا بمناسبة المقام ادراجها »^٤ وكان هذا بصدده حديثه في

(١) (٢٤٦) مناهج الالباب : مطلب في بر الولد لوالده .

(٢) المصدر السابق : مطلب في ترتيب تعليم الأطفال .

(٣) المصدر السابق : مطلب أطوار الصغير .

مناهج الأبواب عن « تعليم الأطفال وأطوار الصغير » يتحدث
فيها الى الأبناء بالنصح والوصية فيما يتحلون به من خلق وما
ينسجون عليه من سلوك ، يبدأها بقوله :

الحمد لله وصل ربي

على النبي وآله والصحب
وبعد فالتأديب للأبناء
أكد واجب على الآباء
من أجل ذا نظمت للتنبيه
خمسا وأربعين يتافيه
في نحو ساعتين والمولى على
قصدى أعان جل ربي وعلا
في بر والديك بالغ تغنم
لا سيما في العيد أو في الموسم
وان ترم سرور أم أو أب
يوما فكسب العلم خير مكسب
ومنها :

ان رمت أن تشوِّق الأولاد
وأن ترى من نجلك اجتهدا
فعده بالاحتاف يوم العيد
وقدم الوعد على الوعيد
ويستعرض فيها ما يستحب للطفل من حميد الصفات

كالنظافة ، والطاعة ، وما يكره منه كالغضب والعناد أو يذم فيه كالتخفى وكتمان السر عن الآباء .

ومما تتحلى به البنات من العلم والاحتشام فضلا عن « الشغل والتطريز » .

فضل البنات الشغل والتطريز

ومن حوت علما به تفوز

في سائر الأحوال الاحتشام

من جنسهن والحيا يرام

ويختمها بما يستوى مع منهجه من أدب الاسلام والتربية
الاسلامية فيقول :

تستحسن الطباع وصف الأدب

وأحسن الآداب آداب النبی

وما سوى أخلاقه فباطل

ومن تحلى بسواها عاطل

ولا يليق من غلام الطاعة

خروج رأيه عن الجماعة

ففى اجتماع الكلمة السلامة

بها يتم الفتى مرامه

والحمد لله وصلى الله

على النبی وكل من والاه

وظل الطهطاوى طوال حياته يعلم ويوجه - كما قلنا -

لا يترك ميدانا من ميادين النهضة الا خاض فيه ومحمسه .
بالتوجيه والترشيد فكان بحق امام النهضة المصرية الحديثة .

وامتد به العمر ، حتى نيف على الخامسة بعد السبعين .
يواجه اللين واليسر أحيانا ، والضيم والعسر أحيانا أخرى ،
يمضى فى رحاب الدولة مقربا أو مبعدا وان لم يغضب أحداً وانم
يغضب منه كبير أو صغير ، وعاصر أربعة من الولاة تعددت
ميولهم ومشاربهم ، ولكنه ظل كما هو لا يتغير بتغير الزمن
ولا يتلون بتلون الولاة ، فوققت منه مناصب الحكومة على قدر
ولم يظفر بمنصب فيه جاه أو سلطان ولم يرتق الوزارة كما
ارتقى اليها بعض معاصريه وتلاميذه ممن هم دونه فضلا على
البلاذ ، ولم ينل الباشوية على كثرة من نالها من خدم الأسرة
الخديوية ومواليها ، ويبدو أن الرجل على ما كان من ولائه
للأسرة الحاكمة - كما يبدو من حمده لهم وتنويهه بأفضالهم
على البلاذ ، لم يكن يخلص فى ولائه الا بقدر ما يعود منهم
على البلاذ من خير ، وما يتحقق على أيديهم من تقدم وعمران ،
كما كان - على قدر ما ينهض بالعمل على أحسن ما يكون ،
ويؤديه على أحسن ما يكون الأداء - أعجز معاصريه عن
التقرب الى الحاكم واستهواء السلطان ، فلم يظفر بعطف الحاكم
ومحبته قدر ما ظفر بحاجة الحاكم اليه والى علمه ، فظل بعيدا
عما يظفر به القريب الى قلب الحاكم من أبهة الحكم وألقاب
الحاكم ، وعاش العمر معلما ، وكان عمله فى تحرير « روضة
المدارس » آخر عمل تولاه .

ففى يوم الثلاثاء غرة ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ (٢٧ مايو ١٨٧٣) انتقل الى رحمة الله بعد أن اشتد عليه داء (النزلة المثانية) على ما يروى السيد صالح مجدى ، وكانت قد أصابته من قبل « فتخلص منها أول مرة ، ثم عاودته ثانى كرة فنجأ منها لنفسه فى أجله ، ثم أدركته فى الدفعة الثالثة فلزم الفراش ولم تنفك عنه حتى مات » .

وودعته مصر الوداع الحار الجدير برجل وهبها علمه وسعى حياته .

مراجع عربية

١ - مراجع عامة

- ١ - أحمد أمين
- زعماء الاصلاح في العصر الحديث
النهضة المصرية ١٩٤٨
- ٢ - أحمد أحمد بدوى : الدكتور
- رفاعه رافع الطهطاوى
البيان العربى : الطبعة الثانية ١٩٥٩
- ٣ - ابراهيم عبده : الدكتور
- تاريخ الوقائع المصرية : الطبعة الثالثة ١٩٤٦
- اعلام الصحافة العربية : الاداب : الطبعة الثانية ١٩٤٥
- تطور الصحافة المصرية : الاداب : الطبعة الثالثة ١٩٥١
- ٤ - أحمد عزت عبد الكريم : الدكتور
- تاريخ التعليم فى عصر محمد على النهضة المصرية ١٩٣٨
- تاريخ التعليم فى مصر :
عصر عباس وسعيد واسماعيل النصر ١٩٤٥
- ٥ - السيد صالح مجدى
- حلية الزمن بمناقب خادم الوطن
تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال
وزارة الثقافة والارشاد ١٩٥٨

٦ - أمين سامى باشا

- التعليم فى مصر المعارف ١٩١٧
- تقويم النيل : ثلاثة أجزاء دار الكتب ١٩٣٦

٧ - جرجى زيدان

- بناء النهضة العربية كتاب الهلال عدد ٧٢
- تاريخ آداب اللغة العربية :
الجزء الرابع ، الطبعة الثانية دار الهلال ١٩٣٧

٨ - جمال الدين الشيال : الدكتور

- تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على
- رفاعة رافع الطهطاوى :
دار المعارف سلسلة نوابع الفكر العربى عدد ٢٤
- التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر
النهضة ١٩٥٨

٩ - حسين مؤنس : الدكتور

- الشرق الاسلامى فى العصر الحديث
المكتبة التجارية الطبعة الثانية ١٩٣٨

١٠ - خير الدين الزركلى

- الاعلام الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٦

١١ - الجبرتى : عبد الرحمن الجبرتى

- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار :
اربعة أجزاء القاهرة ١٣٢٢ هـ

١٢ - عبد الرحمن الراعى

- عصر محمد على النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٧
- عصر اسماعيل : جزآن النهضة المصرية ١٩٣٢

- ١٣ - عبد المتعال الصعيدي
تاريخ الاصلاح في الازهر
القاهرة ١٩٥٨
- ١٤ - علي باشا مبارك
الخطط التوفيقية الجديدة ٢٠ جزءا بولاق ١٣٠٥ هـ
- ١٥ - عمر طوسون (الأمير)
البعثات العلمية في عهد محمد علي
ثم في عهدى عباس الأول وسعيد الاسكندرية ١٩٣٤
- ١٦ - قاسم أمين
تحرير المرأة المكتبة الشرقية طبعة ثانية
المرأة الجديدة مطبعة الشعب ١٩١١
- ١٧ - محمد حسين هيكل : الدكتور
تراجم مصرية وغربية
مطبعة مصر
- ١٨ - محمد عبد الغنى حسن
عبد الله فكرى
اعلام العرب عدد ٤٢
وزارة الثقافة والارشاد
- ١٩ - محمد فريد ابو حديد : بك
زعيم مصر الاول : السيد عمر مكرم كتاب الهلال عدد ٧
- ٢٠ - محمد فؤاد شكرى : الدكتور
بناء دولة
القاهرة ١٩٤٨

٢ - كتب رفاعة رافع الطهطاوى

- تخلص الابرين في تلخيص بارينز
تحقيق وتعليق الدكتور مهدى علام والدكتور أحمد
أحمد بدوى والدكتور أنور لوقا . طبع وزارة الثقافة
والارشاد - مصر ١٩٥٨

- أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل
بولاى ١٢٨٥ هـ
- التعريبات الشافية لمريد الجغرافية
بولاى ١٢٥٤ هـ
- الجغرافيا العمومية الجزء الأول والثالث بولاى
- قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر بولاى ١٢٤٩ هـ
- القول السديد فى الاجتهاد والتقليد مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ
- المرشد الأمين للبنات والبنين مطبعة المدارس الملكية ١٢٨٩ هـ
- مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية
مطبعة الرغائب ١٣٣٠ هـ (١٩١٢)
- مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك بيروت ١٨٦٧
- نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز
مطبعة المدارس الملكية ١٢٩١ هـ

٣ - صحف ودوريات

- ١ - الوقائع المصرية (١٢٥١ - ١٢٦٧ هـ)
- ٢ - روضة المدارس : السنة الأولى الى الرابعة (١٢٨٧ - ١٢٩٠)
- ٣ - الجريدة : السنة الأولى ١٩٠٧ - ١٩٠٨

مراجع أجنبية

- 1) Wilson, Sir Robert. T.
History of the British Expedition to Egypt.
(London 1803)
- 2) Wagborn, Thomas.
Egypt as it is in 1837.
(London 1837)
- 3) Ghorbal, Shafik.
The Beginnings of the Egyptian Question and the
Rise of Mehemet Aly.
(London 1928)
- 4) Dodwell, Henry.
The Founder of Modern Egypt ; A Study of Moham-
med Ali.
(Cambridge 1931)
- 5) Roy. I J. E.
Les Français en Egypt, ou Souvenirs des Campagnes
d' Egypte et de la Syrie, Par un officier de
L' expédition.
(Tours 1855)
- 6) Mengin, Felix.
Histoire de L' Egypte Sous le Gouvernement de
Mohammed Ali.
(2 Vols : Paris 1823)
- 7) Mourriz, p.
Histoire de Mehemet Ali.
(3 Vols : Paris 1858)

فهرست

صفحة

٣	تقديم
٩	مقدمة
٢٨	الموجة الغربية
٣٨	شرق وغرب
٥٥	مجاور من طهطا
٦٨	أزهرى فى باريس
٨٤	تخليص الأبريز
٩٩	المعلم
١٣٥	فى ميدان الفكر
١٥٣	أمام نهضة
١٧٨	مراجع عربية
١٨٢	» افرنجية

دار مصر للطباعة

٢١ شارع كادى

مركز صياح السبت من كل أسبوع مع عدد جديد
من مجلة

الأناعة والسينما

التلفزيون • المسرح • التسياسة

أقوى المجلات
العربية المصورة

طباعة فاخرة
إخراج رائع

٥٠٠ مليما

٧٢
صفحة
بالألوان

رئيس التحرير :
رجاء العزبي

أعلام العرب
الكتاب المتأدم

زرياب
أبو الحسن علي بن نافع
موسيقار الأندلس

بقلم

الدكتور محمود أحمد الحفنى

الناشر : مكتبة مصر بالفجالة
الطبعة : ١٠ فدرشت